عبدالله المغلوث

الطبعة الثانية

كخه يا بابا

... في نقد
الظواهر الاجتماعية...



عبدالله المغلوث

كخه يا بابا

عبدالله المغلوث

كخه يا بابا

عبدالله المغلوث

الكتاب:
كخه يا بابا

المؤلف:
عبدالله المغلوث

التصنيف:
مجتمع وتربية

الناشر: مدارك إبداع، نشر، ترجمة وتعريب

الطّبعة الأولى: فبراير (شباط) 2011
الطّبعة الثانية: أبريل (نيسان) 2011

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ISBN 978-9953-566-17-7

الغلاف: فيصل المغلوث

الكتاب متوفر على الإنترنت: مكتبة نيل وفرات. www.nwf.com



Tel.: 00961 1 282075 - Fax: 00961 1 282074
Gharios Center. Forn Elchebbak. Beirut - Lebanon
www.mdrek.com - read@mdrek.com
P. O. Box: 50074 Forn Elchebbak - Lebanon
سنتر غاريوس، الطابق الرابع، فرن الشباك، بيروت - لبنان

الإهداء

إلى سماح وسفانة

مقدمة

إن أبرز مشاكلنا السلوكية والاجتماعية تبدأ في مجتمعاتنا مبكراً، مبكراً جداً... فنحن نستقبل أطفالنا بعبارات: «كخه يا بابا»، و «أح ياماما»، و «عيب» حتى ينبت الشعر في شواربهم.

هذه العبارات التي ترافق أطفالنا سنوات طويلة جعلت الكثيرين منهم لا يجيدون الحديث وارتكاب الأسئلة. تبدو جملُهم ناقصة وكأن أرتالاً من الفئران الشرهة انقَضّت عليها بأسنانها الحادة. في حين تبدو جمل الأطفال الآخرين أكثر دهشةً وانشراحاً. منعنا أطفالنا مبكراً من المحاولة والخطأ فحصدنا جيلاً مهزوزاً إلا ما رحم الله. البدايات المتعثرة لا تُقَلِّص حظوظ فرق كرة القدم في الفوز بالدوري فحسب، بل تُقَلِّص حظوظ الوالدين بالفوز بابن مبدع أو ابنة مبدعة.

يرى البروفسور سيدني ألتمان، عالم الكيمياء الحيوية الأمريكي من أصل كندي، الفائز بجائزة نوبل في الكيمياء عام 1989، أن قمع الأطفال لا يجعل منهم أشخاصاً ناجحين. يقول: «إن القمع اللفظي والجسدي لا يصنع إبداعاً. الإبداع يحتاج إلى جناحين، هما: المبادرة، وعدم الخشية من الوقوع في الخطأ. هل رأيتم طائراً يحلق بلا جناحين؟».

هنا... محاولةٌ لنقد بعض سلوكياتنا وظواهرنا الاجتماعية المعاصرة، منذ أن نستمع إلى «كخة يا بابا» صغاراً إلى كهولتنا. حاولت أن أسلط الضوء على بعض الممارسات التي حولتنا إلى مجتمع محبط ويائس ولا يجيد الفرح، وهي كتابات دونتها بين عامي 2004 و 2010.

أتمنى لكم قراءة ماتعة وشيّقة ترسم الابتسامة على شفاهكم وتدخل السرور إلى صدوركم.

عبد الله المغلوث

مانشستر، بريطانيا

9 يناير (كانون الثاني) 2011

ابتسم يا حمار

على ضفاف كورنيش قطر شاهدت سيدة سعودية تسحب ابنها من أذنه حتى تكاد تقطعها وتقول له وهو يهطل دموعاً «قف ولا تتحرك حتى انتهي من تصويرك». الطفل لم يذعن لطلبها، كان يضع يديه على وجهه. اضطرت أمه للاستعانة بزوجها. جاء يهرع من الخلف حاملاً يده الضخمة التي تشبه المطرقة. صفعه بها بقوة حتى أخمد بكاءه وأشعل ألمنا.

استرجعت هذا الموقف عندما شاهدت أباً سعودياً يأمر أبناءه بالابتسام أمام «فندق كمبينسكي مول الإمارات» في دبي لالتقاط صورة جماعية لهم. وقد كانت المفاجأة عندما قال لأحد الصغار وهو يهم بضغط زر الكاميرا «ابتسم يا حمار».

أي صورة تلك التي سنحظى بها وسنودعها ألبومنا وذاكرتنا. أي ابتسامة هذه التي ستولد من رحم القمع والشتائم.

من المخجل حقاً أن يصوّرنا آباؤنا عنوة، أن يطعمونا عنوة، وأن يدخلونا إلى مدارسنا عنوة.

إن نتائج هذا التعسف مؤسفة، مؤسفة جداً. سننبت متجهمين، غير مقبلين على الحياة والمستقبل. ستكون صورنا متشابهة، نرتدي ملابس مثل بعضها. نرتاد مدارس واحدة.

لاشك أنه من الضروري أن نتعلم وندخل المدارس، ولن نستطيع أن نبقى على قيد الحياة دون أن نأكل ونشرب، كما أنه من المستحيل أن نعيش في هذا العصر بلا صور.

لكن سيكون من الأجمل أن ننمي حب المدرسة في نفوس أطفالنا مبكراً، أن نمنحهم حق اختيار طعامهم بانضباط، أن نجعلهم يتفاعلون مع الكاميرا مبكراً.

بعد ذلك سنلمس الفرق، سنجدهم يسحبوننا من ثيابنا لنصورهم، سيلحّون علينا لإعداد أطباقهم المفضلة، سيشركوننا في رسوماتهم وفروضهم الدراسية. سيتباهون أمامنا بخيلاء بالنجوم التي تلمع في دفاترهم.

علينا أن نجعلهم يختارون ويقررون، يبتسمون بعفوية دون افتعال، وندعهم يكشفون عن مواهبهم واختياراتهم أمامنا قبل غيرنا.

العلاقة الوطيدة بيننا وبين أطفالنا يجب أن تبدأ مبكراً. مبكرا جداً؛ لتكون صحية ومزدهرة.

يرى المعماري الخلاق الأردني راسم بدران أن علاقته الاستثنائية مع ابنه المهندس جمال بدأت منذ أن كان في بطن أمه. يقول راسم في محاضرته في الغرفة التجارية بالمنطقة الشرقية، التي حضرها مئات المهندسين والمهندسات الشباب الذين يعشقون أسلوبه المعماري الفريد: «كنت أضع له موسيقى موزارت بإسراف وهو جنين في أحشاء أمه».

ويؤمن راسم أن الألحان التي التقطها جمال وهو يتكون في رحم أمه ساهمت في تعلق ابنه بالموسيقى، وجعلته أصغر عازف في الأردن قبل أن يكمل سبع سنوات. ويرتبط جمال بعلاقة خاصة مع أبيه أسفرت عن مشاريع هندسية وفنية مشتركة ومبهرة.

إذا أردنا أن يعشق أبناؤنا القراءة فمن الأحرى أن ندعهم يطالعوننا ونحن نلتهم الكتب بشراهة. الواحد تلو الآخر دون هوادة. أن نملأ رفوف مكتباتنا بكتب مختلفة ومتنوعة، أن نهنّئهم عندما يقرأون صفحة، ونكافئهم عندما يفرغون من كتاب. ستكون النتيجة مذهلة.

يعتقد الكوميدي والمؤلف الإنجليزي ليز داوسون، أن ولع ابنته بالروايات جاء بفضل الكتب التي غرسها في

منزله. يقول: «هناك من يزرع وروداً في أرجاء بيته. أنا زرعت كتباً فقطفها أبنائي».

وبدورنا علينا أن نزرع البسمة في منازلنا. ولا ندعو الحمير والثيران والأبقار لارتيادها؛ لأنها بساتين وليست حظائر.

أتعس فتاة في الدمام

قبل نحو 15 عاماً ثار صديقي عبد العزيز وماج عندما علم بنبأ دخول شقيقته كلية الطب. حاول أن يقنع والدها بأن التحاقها بهذه الكلية يُعد شراً مستطيراً. لكن والده لم يعدل عن رأيه وبارك لابنته خطوتها ورغبتها. لم يقنط عبد العزيز. واصل تأليب إخوته وأخواته لتغيير مسار شقيقتهم الصغرى، بيد أن جهوده ذهبت سدى. لم يجد حلاً سوى هجر منزل والديه. حمل حقائبه وصغيرته على كتفه وغادر بعيداً. قطع علاقته بأبويه وأشقائه. لم يجب على اتصالاتهم ونداءاتهم. اعتقد الجميع أن غضبه سيذوب بعد شهر أو شهرين. لكن مرّ أكثر من ستة شهور بلا جديد. فرأس عبد العزيز كالحديد. استماتت شقيقته الصغرى، طالبة الطب، لتلتقيه وتعيده دون جدوى. فقد كان ردّه الدائم على الوساطات والمحاولات: «لن أتحاور معها قبل أن تغادر الكلية». داست شقيقته على قلبها وطموحها وانسحبت من الكلية من أجل لمّ شمل الأسرة مجدداً. ضحت بمستقبلها في سبيل استقرار عائلتها وتماسكها. عاد شقيقها وزوجته وابنته إلى المنزل مجدداً. لكنها غابت. لا تخرج من غرفتها

إلا لماماً، لتأكل أو تذهب إلى كلية الآداب التي التحقت بها على مضض. لا تتحدث إلا نادراً. تخرجت من كليتها الجديدة بمعدل جيد بمشقّة. لم تحصل على وظيفة تقيم الأود ولا زوج يرأب الصدع. تهطل دموعاً كلما شاهدت إحدى زميلاتها مرتدية «البالطو الأبيض» الذي طالما حلمت أن تلبسه وتزينه ببطاقة تحمل اسمها.

كانت تصرف أيامها أمام التلفزيون ولاحقاً أمام شاشة الكمبيوتر. تنتقل من موقع إلى آخر بحثاً عن سعادة ذهبت مع كلية الطب ولم تعد. تمر أيامها بلا طعم ولا لون ولا رائحة. تحزن كثيراً عندما تتذكر المختبرات التي ارتادتها قليلاً. تتعذب كلما شاهدت شقيقها أو سمعت صوته الذي يوجعها كما الكوابيس التي تنهشها كل مساء بسببه.

تجرعت كل الأحزان بمرارة شديدة. بيد أنها لم تستطع أن تبتلع قراراً اتخذه شقيقها عبد العزيز مؤخراً. قرار تمثل بالسماح لابنته دخول كلية الطب هذا العام. جاء إلى غرفتها مطأطاً رأسه، راجياً عفوها. لكنها لم تغفر له ذنبه وتصفح عنه. فقد سمح لنفسه أن يسلبها أحلامها وطموحاتها، في المقابل تنازل عن قناعاته من أجل فلذة كبده. حاول أن يبرر لها أن الدنيا تتغير وهو تغيّر. أوصدت

الباب في وجهه، وعادت إلى وطنها الصغير، إلى غرفتها التي فاضت بدموعها وآلامها.

صديقي عبد العزيز نادم أشد الندم لأنه حرم شقيقته من حلمها. لكن بعد فوات الأوان. فأرجوكم لا تكرروا نفس خطأه. لا تحرموا شقيقاتكم وبناتكم من أحلامهن. لا تقفوا حائلاً بينهن وبين طموحاتهن. افتحوا لهن الأبواب ولا توصدوها، ولنرفع معاً أعداد السعيدات ونخفض أعداد التعيسات.

أخلاق سعودية!

فوجئت عندما وصلت للبائع بعد انتظار ممض في أحد المحلات التجارية بالظهران بشخص يأتي من الخلف ويتجاوزني دون استئذان. فرش أغراضه أمام البائع غير عابئ بالطابور ومن يقطنه. قلت له بأدب جم وهدوء: «لو سمحت احترم الطابور وعد إلى الخلف. إنه دوري». ابتسم بمكر، ثم قال بصوت مؤذٍ: «أنا مشغول وليس بوسعي الانتظار». فأجبته: «وأنا مشغول أيضاً». اعتقدت أن إجابتي الأخيرة ستنهي هذا النقاش وسيعتذر مني ومن البقية ويمنحني مكاني الذي سلبه. لكن توقعي لم يكن في محله. فقد رد بلهجة تصعيد وتحدٍّ قائلاً: «لن أتحرك من هنا، ولن يقتلعني أحد من هذا المكان حياً. أرني ماذا ستفعل؟». قبل أن أنبس ببنت شفة رأيت البائع يمرر أغراضه على الجهاز ويبتسم في وجهنا قائلاً: «تعوذا من الشيطان. إننا في رمضان».

لم تكن هذه المرة الأولى التي أتعرض لمثل هذا الموقف. فقبلها بأيام وأنا في طريقي إلى البحرين تعرضت لموقف مشابه. اعترضتني سيارة وأنا في طريقي إلى

كابينة الجوازات. جاءت من الخلف دون أدنى تقدير للنظام ولطابور السيارات الطويل والضجر الذي يعلو الوجوه. كدت أدع السيارة تمرّ كما مرّت العشرات غيرها أمامي. بيد أنني رأيت أنه يجب أن أسجل موقفاً، لاسيما أن السائق لم يرفع يده مستئذناً أو حتى مبتسماً. هبطت من سيارتي وتوجهت إلى سيارته راجلاً. طرقت نافذته ليفتحها، لكنه لم يفعل. فتحها لاحقاً إثر إلحاح زوجته التي كانت تتوسله أن يفعل. قال لي بعد أن فتح نافذته قليلاً كأنني متسول ينتظره خارج سيارته: «ماذا تريد؟»، أجبته: «أريد مكاني الذي سرقته». ضحك ثم قال متهكماً: «ارفع عليّ قضية!». رددت عليه قائلاً: «لن أرفع قضية ولا حتى صوتي. فقط أحببت أن أقول لك إنك أخطأت في حقي وفي حق غيري ويجب أن تعتذر». انصرفت بعد أن اعتذر بتقشف وبرود.

ولا أنسى الموقف الذي رواه لي أحد ذوي الاحتياجات الخاصة في الرياض. وذلك عندما استولى أحد زوار المستشفى على موقف سيارته أمام الباب الرئيسي. فحينما سأل ذو الاحتياجات الخاصة السائق أن يغادر الموقف بلطف. ردّ عليه الشاب برعونة قائلاً: «انتظر دقيقتين. سأذهب لزيارة قريب بسرعة وأعود. لن يضرك شيئا لو انتظرتني قليلاً».

إن هذه التصرفات التي نقترفها تجاه بعضنا وتجاه غيرنا تجسد وجود خلل كبير في سلوكياتنا. وتعكس حجم الخطر الذي يحدق بنا ويتربص بمستقبلنا. فالمواقف الصغيرة التي نتعرض لها في الشارع تعبر عن حجم المأساة التي نعيشها. فالشخص الذي يسطو على مكان ابن جلدته في الطابور في وضح النهار، قطعاً سيسطو على ماله وممتلكاته في الظلام. إذا لم نبدأ في ترميم سلوكياتنا ستتحول كل مشاريعنا النهضوية إلى أوهام وسراب. فكما قال سقراط: «الأخلاق أهم للإنسان من خبزه وثوبه». وقد حذرنا الشاعرأحمد شوقي قائلاً:

وإذا أصيب القوم في أخلاقهم   فأقم عليهم مأتماً وعويلاً

ونحن لا نريد إقامة مآتم وسرادق عزاء، بل أعياد واحتفالات نطرزها بإنجازات وانتصارات. لكن هذا لن يتحقق ونحن نرتكب هذه السلوكيات والممارسات التي ما أنزل الله بها من سلطان والتي بدورها تغتال أي سعادة وتجفف أي حلم.

ثمة مسؤولية اجتماعية يفرضها علينا ديننا وإحساسنا بالمواطنة، تتطلب تغييراً جذرياً في تصرفاتنا وسلوكياتنا. وأن نقوم بتسجيل موقف تجاه أي مبادرة سلبية.

فلا نسمح بمرور أية مخالفة إنسانية أمام أبصارنا دون أن نسجل احتجاجنا وضيقنا وشجبنا واستنكارنا. تهاوننا وسلبيتنا تجاه ما يجري حولنا ساهم في تفاقم السلوكيات والممارسات الخاطئة التي تحاصرنا.

عندما نغادر وطننا ونشاهد شخصاً قطع إشارة أو رمى على قارعة الطريق سيجارة سنتوقع فوراً أنه سعودي؛ لأنه ارتبط بالمخالفات والتجاوزات. لم لا يصير العكس. يصبح السعودي عنوانا للسلوك الحضاري. لن ننال طموحاتنا بالتمني. علينا أن نبدأ. أن نبدأ من اليوم إذا أردنا أن نضرب المثل يوما ما بالأخلاق السعودية.

أسعد رجل على وجه الأرض

لم ألتقِ في حياتي بشخص أكثر سعادة من السيرلانكي روشان داسن (37 عاماً). فهو يبتسم على الدوام. يبتسم وهو يستقبلك ويبتسم وهو يودعك ويبتسم بينهما. لا يملك سوى ثلاثة قمصان يكررها على مدار العام، لكنه يشعرك أنه يملك الدنيا وما عليها. درست معه مادة قبل 9 شهور في مانشستر ببريطانيا ومازلت أقصده كلما حزنت، فهو يملك قدرة فائقة على إطفاء أي حزن بابتسامة واسعة وتفاؤل غفير.

روشان لا يغادر جامعة سالفورد ببريطانيا التي يدرس فيها الدكتوراه في الهندسة. فإما تجده في غرفة طلاب الدكتوراه يكتب ويقرأ، أو تجده داخل دورات مياهها ينظف ويكنس. مستعد أن يقوم بأي عمل شريف يساعده على تسديد رسومه الدراسية وإيجار شقته.

لم أرَه متذمراً قط. ولم أره يأكل طوال معرفتي به. عفواً، رأيته مرة واحدة، وكان يأكل مثل العصافير، قليلاً جداً. وعندما شاهدني أعاد علبة طعامه الصغيرة إلى حقيبته بسرعة فائقة وابتسم.

يقرأ التايمز والجارديان يومياً في مكتبة الجامعة. ولا يتابع التلفزيون إلا لماماً. لكنه يتابع برنامجاً شهياً على إذاعة «ريل راديو نورث ويست». هذا البرنامج يمتد إلى ساعة واحدة. يذيع فقط أنباء سعيدة طريفة يستقبلها من مستمعيه. مثلاً: مارك جون من ليفربول استطاع أخيراً أن يعرف كيف يربط ربطة عنق، وجينفر وجدت قبل لحظات نظارتها الشمسية على وجهها بعد عناء استغرق ساعات في البحث عنها. ومرة سمعت اسم روشان في البرنامج محتفلاً بكوب شاي ارتشفه في منزل صديقه.

لدى روشان ميزة استثنائية تكمن بالاحتفال بالأشياء الصغيرة. سعادة تفيض من وجهه عندما يعثر على كتاب أو جملة جذابة في رواية.

تجاوز روشان الفقر المدقع الذي كان يرزح تحت وطأته في مسقط رأسه، وظروف صعبة عاشها في بريطانيا بفضل ابتسامته التي ورثها من والدته. يتذكر أمامي دائماً كلمات أمه عندما كان صغيراً: «لا تحزن لأنك لا تملك حذاء، بل افرح لأن لديك جورباً».

على النقيض تماماً من روشان، لديَّ صديق عابس وقانط على الدوام. لم أشاهده مبتسماً قط. كل الأفراح

يحوّلها إلى أتراح. عندما باركت له التخرج صعقني قائلاً: «اخفض صوتك. من يسمعك سيعتقد أنني حصلت على وظيفة أو ورثتُ مالاً». وحينما هنّأته بطفله الأول، سحب يدي بصرامة حتى كاد أن ينتزعها ثم قال: «احذر، لا تنجب مبكراً. منذ أن أبصر طفلي النور وأنا لا أعرف النوم». إذا ابتسمت أمامه عاقبني قائلاً: «سيجيء لك يوم وتبكي». وإذا وجدني مهموماً زاد همي همّاً بقوله: «قطعاً، تفكر في دراهمك؟».

صديقي لا يمثل حالة شخصية، بل واقع الكثير من إخواننا وأخواتنا في وطننا العربي الكبير الذين ينظرون للحياة بتشاؤم. ينظرون للنصف الفارغ من الكأس، وينقلون عدوى الإحباط لأترابهم ليسود جوٌّ عارم من الانهزامية والخيبة والحزن. يقول الفيلسوف الفرنسي، أوغست كونت: «لكي تحتفظ بالسعادة عليك أن تتقاسمها مع الآخرين». فالابتسامة التي تسكبها من وجهك ستعود لك. ستذهب بعيداً. لكنها حتماً ستعود.

قضيت سنوات عديدة في الغربة أدرس ولا أختلط إلا بأبناء جلدتي. فأمسيت على الدوام أنتقد حجم المكافأة وارتفاع غلاء المعيشة وتجاهل الملحقية الثقافية الردّ على

اتصالاتي. أهدرت سنوات طويلة مكفهراً ومتجهماً. ضيعت شهوراً جمة غاضباً وحانقاً. لكن عندما تعرفت على روشان أدركت أن الحياة تستحق أن نتعلق بها أكثر. ونتشبث بها بأقدامنا وأيدينا. جعلني أستمتع بكوب الشاي، وأبتهج بقميصي الجديد. جعلني أحتفل برسالة نصية هاتفية، وأطرب لمحاضرة تقليدية. جعلني أفرح أكثر وأحزن أقل. جعلني أبتسم كثيراً.

تفشى الإحباط في مجتمعاتنا لأننا تخلينا عن الفرح. انصرفنا عن البهجة، ونسينا أن الأفراح الصغيرة وقود للأفراح الكبيرة. وأن البحر يبدأ بقطرة. والشجر ينهض من بذرة.

أكتبوا تصحوا

أُكتب يوميا ثلاث رسائل إلى من تحب أولها بعد الإفطار، وثانيها بعد الغداء، وثالثها قبل أن تخلد للنوم، وسيزول عنك الاكتئاب تدريجياً. لا يهم أن تكون هذه الرسائل إلكترونية أو تقليدية. المهم أنك تكتبها وتعيشها. إن كتابة رسائل المحبة والامتنان والتقدير أعظم عقار يقضي على القنوط ويشيع البهجة. فإذا كان لعقار «بروزاك» آثار جانبية قد تؤدي إلى الإصابة بأورام في المخ لأنها تؤثر في قابلية الجسم على التخلص من الخلايا السرطانية، فإن آثار كتابة الرسائل الجانبية تنحصر في ورم أصابعك التي ستدمن المراسلة والحب!

أثناء دراستي في الخارج لم يكن هناك شيء يسعدني ويثلج صدري ويزيل همّي ككتابة الرسائل لوالدي ووالدتي وإخوتي وزملائي. فرغم تبادلنا الغزير للاتصالات كنت لا أستطيع أن أقاوم رغبتي في كتابة رسائل لهم أصف فيها شهري المنصرم والمواقف التي عبرتُ خلاله بدقة وتأن. وتتعاظم سعادتي عندما أبعثها عبر مكتب البريد وأترقب ردّة فعلهم إزاءها. وعندما أجد وقتاً إضافياً كنت أقوم

بقراءة هذه الرسائل وبتسجيلها على شريط فيديو أو قرص مدمج ليتصفحوها صوتاً وصورة متى أرادوا وأينما أرادوا. فالماسنجر لا يفي بالغرض، بل يجلب المرض. ولم يعكر صفو تلك السعادة سوى تندر زملائي الخليجيين عندما يشاهدونني أمسك قلماً وأكتب رسالة. فقد كانوا يوجهون سهامهم تجاهي ساخرين: «تكتب رسالة، ليه أنت شغالة؟!».

كانت كلماتهم تخدش روحي في البداية. لكن مع مرور الوقت صارت لديَّ مناعة تجاه كل الأصوات المناوئة لكل ما يثير فرحي ويخمد ترحي. استمريت في كتابة الرسائل حتى عندما عدت إلى المملكة وذلك بأشكال وصور متعددة. عبر البريد الإلكتروني، وعبر الجوال، وعبر الابتسامة فوجدتني أتجاوز الكثير من الهموم بأقل كمٍّ من الخسائر، بل دون خسائر.

فكتابة الرسائل لا تمنحني شعوراً فريداً بالسعادة والمتعة فحسب، بل تجعلني أكثر قرباً ممن أحب، أكثر وفاء لمن أحب. تكسر الجليد، وتحطم الحديد. فخلال لقائي السريع بزميلي في العمل لا أستطيع أن أعبّر له عمّا أكن له في داخلي من مشاعر وما احتفظ له في نفسي من تقدير. في المقابل أستطيع أن أحتضنه، وأشكره، وامتدحه شعراً

ونثراً حتى أشبع في رسالة دون أن يقاطعني أو تقاطعني مكالمة أو مهمة عملية.

في مكان عام لا تستطيع أن تشكر من أسدى لك معروفاً كما ينبغي، لكن في رسالة خاصة تستطيع أن تضخَّ فيها ما تشاء، كما تشاء، حتى تشاء.

كتابة الرسائل تعزز روح العطاء لدى البشر وحتى الحجر، تعزز المحبة والمودة، تؤلف الأفئدة والأفكار، تقرِّب المسافات وتهدم الحواجز.

اكتبوا بأصابعكم وأفواهكم ووجوهكم وقلوبكم وشرايينكم ودمائكم. وقاطعوا «البروزاك» والاكتئاب والتردد والكسل والخجل.

جربوا أن تفشوا مشاعركم وأحاسيسكم وانطباعاتكم وأحلامكم وهمومكم مباشرة. لا تدخروا شيئاً إلى الغد.

أكسل شعوب الأرض

شاركت مع ثلاثة سعوديين في ماراثون للدراجات الهوائية في 26 سبتمبر الماضي في لندن. تساقطنا الواحد تلو الآخر. كنت أول المنسحبين من السباق بعد مضي نحو ساعتين. تلاني آخر بعد أقل من 5 دقائق. ثالثنا صمد ربع ساعة أخرى قبل أن يلحقنا بالسقوط. أصبنا بخيبة أمل كبيرة بعد أن شاهدنا متسابقين في أعمار أجدادنا وجداتنا يواصلون السباق في حين لم نستطع أن نكمل ربعه. اكتشفنا حقاً أن الشيخوخة ليست في الأعمار بل في العقول. مئات من مختلف الأعمار والجنسيات والمشارب والأحجام تابعوا الماراثون لساعات تعلوهم سعادة بالغة، في حين غمرتنا علامات الإعياء والإرهاق فور أن امتطينا صهوة دراجاتنا. خرجنا من السباق ونحن عاجزين عن القيام بأي شيء سوى التذمر والرغبة في الاسترخاء. أو بمعنى أدق العودة إلى الاسترخاء والخمول الذي نبرع فيه نحن العرب أكثر من غيرنا. فنحن نعجز أن نقف في الطوابير ما طال منها وما قصر ونبحث بأي وسيلة عن طريقة تخلصنا منها. عن طريق واسطة قريب أو نسيب أو حبيب. المهم أن نتخلص

منها. سياراتنا يجب أن تقف أمام الدوائر الحكومية التي نراجعها أو أمام البوابات الرئيسة للمجمعات التجارية. لا يمكن أن نقبل أن نركنها بعيداً ونمشي مسافة قصيرة. وإذا لم نجد مكاناً قريباً لمركباتنا فلا بأس أن نسطو على مواقف ذوي الاحتياجات الخاصة. هل شاهدتم في حياتكم أحداً حصل على مخالفة مرورية في وطننا لأنه أوقف سيارته في مواقف مخصصة لذوي الاحتياجات الخاصة؟

إننا لا نصعد السلالم بل نفضل المصاعد الكهربائية حتى لو كان هدفنا الطابق الثاني. في العمارة المكوّنة من أربعة أدوار التي أسكنها في بريطانيا تعطل المصعد لمدة أسبوع دون أن يصلحه أحد. عندما هاتفت إدارة العمارة أخبروني أنني الوحيد الذي أبلغ عن العطل. جاء الفني فوراً لإصلاحه. شعرت لوهلة أنني أكسل شخص في بريطانيا، فالحياة لم تتعطل في العمارة لأن المصعد لا يعمل. تعطلت في داخلي فقط. هناك سلالم. هي خيارهم الأول، بينما المصعد هو خيارنا الأول. نحن نبحث عن أي شيء يقلنا بسرعة إلى أهدافنا دون أن نستشعر قيمة الصعود خطوة خطوة. إنه شعور عظيم.

النجاح الذي يحصده الغرب والشرق من حولنا نتيجة

طبيعية لطبيعة حياة الفرد هناك. فهم يصعدون السلالم، ويمشون باستمرار، ويقضون حوائجهم بأنفسهم مهما كان حجم انشغالهم ومهما بلغت ثرواتهم. نحن لا نقوم بذلك. نستقدم من يقوم بإعداد الشاي والقهوة لنا. نستقدم من يعبِّئ سياراتنا بالوقود. نستقدم من يقوم بالعناية بأطفالنا. فمن الطبيعي جداً ألا نستطيع مجاراتهم في ماراثون أو أي سباق آخر سواء كان رياضياً أو علمياً أو ثقافياً أو فكرياً، فقد تبلّدت عضلاتنا وأعصابنا وعقولنا من قلة الاستعمال.

معظمنا يفتقر للّياقة المطلوبة لحصد الإنجازات، فنبدو كهولاً منذ نعومة أظفارنا. تجاعيدنا لا تبدو في وجوهنا وأطرافنا، لكن تبدو في أعماقنا وفي سلوكياتنا وتصرفاتنا، في ردود أفعالنا البطيئة، البطيئة جداً.

نحن نولد شيوخاً محشوين بعادات تجعلنا أقرب إلى الموت منه إلى الحياة. يقول الفيلسوف الإنجليزي فرنسيس بيكون: «تكمن الشيخوخة في الروح أكثر مما تكمن في الجسد». حين تتحرر أرواحنا من عاداتنا السلبية ربما نستطيع أن نعود شباباً.

لا يجب أن نفرح كثيراً كون الشباب يشكلون الشريحة الأكبر في مجتمعاتنا، فهؤلاء الشباب ليسوا شباباً كما نعتقد.

إنهم كهول يرتدون أقنعة. إن الشباب هناك، في أمريكا وأوروبا وشرق آسيا يعملون حتى آخر لحظة، يمشون حتى آخر لحظة، يضحكون حتى آخر لحظة. جاري البريطاني، باول هاركير (82 عاماً)، امتهن بعد أن تقاعد عن التدريس مساعدة الأطفال على عبور خطوط المشاة أثناء توجههم إلى مدارسهم. أجده في تمام الساعة الثامنة والنصف ويبقى حتى التاسعة والنصف على رأس الشارع، يحمل لافتة «قف» ومرتدياً سترة صفراء لامعة، يوقف السيارات بابتسامة. ويعبر مع الأطفال برشاقة ساحرة. كم من شبابنا وليس من «شيابنا» يقوم بهذه الوظيفة العظيمة؟

يقال إن الشباب هم عماد الأمة. اكتشفنا الأمة، لكن لم نجد الشباب. فلنعثر عليهم معاً!

«أكيد تحبني!»

اعتادت معلمة اللغة الإنجليزية الأربعينية ماريا أن تتعامل مع طلابها كأبنائها. تأكل معهم، وتقرأ معهم، وتصفق لهم، وتضحك معهم.

كانت تفعل كل ذلك معنا وأكثر. لكن كان زميلنا خالد القادم «طازجاً» من المملكة يصرّ على أنها تكنّ له مشاعر خاصة. كان يعتقد أنها وجدت فيه ضالّتها المنشودة. فهو يزعم أنه يقرأ العيون، وعينيها تمتلئ ولعاً وإعجاباً به وبلونه وبخصاله البدوية.

لا أنسى عندما جاء خالد إلى شقتي دافعاً صدره إلى الأمام، وبيده بطاقة بريدية تعج بالورود تلقاها من ماريا، حيث كانت تقضي إجازتها في إسبانيا. وكتبت فيها «تمنّيت أن تكون معنا. الرحلة ممتعة، والأجواء خلابة...». وقبل أن يدعني أكمل الرسالة قال لي ووجهه يكتظ بابتسامة واسعة: «ألم أقل لك إنها تحبني؟». حينها أخرجت من حقيبتي بطاقة بريدية باسمي تلقيتها من السيدة ماريا والتي أرسلت مثلها لكل طلابها، مما بدّد أحلامه وأوهامه.

تذكرت قصة خالد وأنا أجلس أمام مكتب الاستقبال في أحد المستشفيات الخاصة عندما قطع حبل أفكاري

أحدهم، وسألني بصوت خفيض من دون مقدمات أو سابق معرفة: «هل موظفة الاستقبال تطالعني؟». أجبته مازحاً: «بكل تأكيد». ولم أكن أعلم مطلقاً أن جملة قصيرة ستهز هذا الشاب. فمنذ أن أجبته وهو يركض في أروقة المستشفى دون هدف كعدّاء خائب، يتحرك بقلق، ويهطل عرقاً. ولم يذهب ولم يختفِ إلا عندما اندلعت الموظفة صراخاً في وجهه بعد أن عرض عليها رقم هاتفه الجوال، قائلة: «أنت جئت هنا لتغازل أم لتتعالج».

في نفس المستشفى شاهدت كيف توتر سعودي وهو يشرح حالته لممرضة مواطنة، كان يتكلم معها وهو يدير ظهره لها، كان يُتَأتِئ، كأنه طفل يتكلم لأول مرة. لم تدعه الممرضة يواصل، استنجدت بممرض فلبيني لينقذهما!

أيضاً، مازلت أذكر جيداً ارتباكي أمام أول زميلة سعودية أعمل معها عندما عدت للمملكة. فلم أعلم كيف أتحدث معها. هل ابتسم وأنا أحدثها لأبدو طبيعياً أم أتجهم لأظهر غليظاً؟ لا أعلم كيف سار اللقاء ولكن أدرك أنه يصلح ليكون مشهداً كوميدياً.

علاقة ملتبسة بين الرجل السعودي والمرأة تبرز خلال أي لقاء أو عمل يجمعهما واقعي أو افتراضي.

لم يعد بإمكان أي منّا التحكم في تمدد تواصل الرجل والمرأة وعملهما معاً. فهذه العلاقة تأخذ منحى تصاعدياً شئنا أم أبينا. وليس بوسعنا إزاء ذلك سوى تطوير وتهذيب هذه العلاقة والعمل على تأسيس مستقبل صحي لها يكفل حفظ كرامة الطرفين.

فاستمرار هذه العلاقة على هذا النحو المشوّش سيدعو الكثير من الأسر للتمسك برأيها حيال عدم السماح لبناتهم بالعمل في أماكن يتداخلن فيها مع رجال.

فالكثير من شبابنا لا يفتأون يرددون في الداخل على مسامعنا ما ردّده خالد في أمريكا كـ«ألم أقل لك إنها تحبني؟» أو «أكيد تحبني» عندما تبتسم أمامهم زميلة، أو ممرضة، أو مندوبة مبيعات، أو حتى عاملة منزلية.

كما لا يتوانى الكثير من الشباب على التعليق مع بعضهم البعض على هيئات زميلاتهم في العمل إيجاباً وسلباً، مما يدفع المعلّقين والمستمعين على حد سواء، للتفكير غير مرة قبل الموافقة على التحاق شقيقاتهم وبناتهم بوظيفة قد يمر بمحاذاتها رجل يؤذي إحداهن بكلمات من أمامها أو من خلفها.

هذا العزوف الجماعي ساهم في ترهل البطالة، وشيوع الإحباط، وغياب المرأة عن أمكنة جديرة بها.

علينا أن نزرع في رأس كل يافع أن المرأة التي تقوم بتطبيبه، بتمريضه، بتدريسه، بالعمل معه «أكيد ما تحبه» لكنها تحترمه، ومن المفترض أن يقابل هذا الاحترام باحترام يدفع مجتمعنا إلى الأمام.

تخيلوا العالم بلا فلبينيين

يعيش محمد المغربي بلا يدين في جدة بعد أن أغلق محل بيع الزهور والهدايا الذي يمتلكه إثر إصرار عامليَه الفلبينيَّين على الرحيل. يقول: «أشعر أنني فقدت أطرافي بعد غيابهما، أقلعت عن الفرح وحتى عن الأكل».

محمد طار إلى مانيلا قبل أسبوع لمفاوضة عاملَين فلبينيين بديلين بعد أن جرب جنسيات مختلفة دون جدوى. يجزم: «لا توجد مقارنة بين الفلبينيين وغيرهم».

كيف ستغدو المملكة من دون فلبينيين؟ سؤال يغرس علامة استفهامه في رأسي كلما تعاظم دورهم بيننا.

ففي المملكة يعيش أكبر عدد من الفلبينيين خارج وطنهم إذ بلغ عددهم نحو 1.019.577. وفي عام 2006 فقط استقبلنا أكثر من 223 ألف فلبيني والعدد في اطراد.

ولا يقتصر وجود وتأثير الفلبينيين على المملكة، إذ ينتشرون في أنحاء العالم، في البرّ والبحر. يقومون بأدوار لا يجيدها غيرهم بذات الجودة والدقة.

ولا يمكن لأي منا أن يتخيل الحياة من دون الفلبينيين. فهم يشكلون ما يقارب 20% من إجمالي البحارة أو «السي فاريرز» في العالم والذين يبلغ عددهم 1.2 مليون.

فلو أوقفت الفلبين تصدير بحّارتها لأي سبب أو أضربوا عن العمل لأي سبب، من سينقل للعالم البترول والغذاء والمعدات الثقيلة. فلنا أن نتخيّل حجم الكارثة التي ستحدث.

العالم الراهن قد يتقبل أن يعيش دون طائرات لكن لا يستطيع أن ينهض من فراشه، وأن يتحرك عندما تنطفئ محركات السفن، فهي التي تمدّ المكائن والبشر بالوقود، وبالطاقة.

والفلبينيون يتوافرون في أكثر من 51 ألف عابرة محيطات حول العالم، يؤدون مهام استثنائية في عمليات النقل والصيانة والتشغيل على متن هذه الناقلات الضخمة والمؤثرة.

وما يميز الفلبينيين عن غيرهم هو إجادتهم للغة الإنجليزية، وحصولهم على التدريب الفني في صفوف مبكرة. فالفلبين تمتاز بمعاهد تدريبية متخصصة تصقل مواهب طلبتها بأفضل أنواع التدريب المرتبط بالعمل. كما أنها تركز على تخصصات تتجاهلها الكثير من دول العالم وهي هندسة وصيانة السفن والطرق وعلوم التخطيط التي جعلت الفلبينيين يتبوّأون الريادة في هذا المجال.

وعندما نتحدث عن الفلبينيين لا يجب أن ننسى الممرضات الفلبينيات اللاتي يشكلن ما نسبته 23٪ من عدد الممرضات في العالم.

ففي الفلبين نحو 190 جامعة وكلّية ومعهد معتمدة تقدم شهادات ودورات في التمريض. وتخرّج سنوياً أكثر من 9000 ممرض وممرضة أغلبهم ينتقلون مباشرة إلى العمل في مستشفيات أمريكا وبريطانيا والسعودية وإيرلندا والإمارات والكويت وسنغافورة. وأصبح من غير المألوف أن تدخل أي مستشفى في العالم دون أن تشاهد ممرضة فلبينية تبتسم في وجهك وتبعث الأمل في نفسك.

تقول الممرضة الفلبينية كاتي آن (35 عاماً) التي تعمل في المملكة منذ 5 سنوات وقبلها عامين في سنغافورة، إنها لم تشعر في سنغافورة أو الخبر بأنها خارج وطنها «فالفلبينيون كانوا حولي في كل مكان».

وتعتقد كاتي أن التأسيس المبكر هو الذي جعل الفلبينيات يتميّزن في التمريض وغيره من الحِرف. فهي بدأت تتعلم هذه المهنة وهي في الرابعة. فخالتها كانت تصطحبها معها إلى المستشفى الذي تعمل فيه وتطلب منها أن تراقب تحركاتها وأسلوبها وتعطيها قبلة على جبينها

حينما تتعلم شيئاً جديداً. تقول: «عندما بلغت الحادية عشرة أصبحت محترفة. أصبحت أقوم بقياس ضغط جدي، وإعطاء أمي حقن الأنسولين».

هذا التأسيس المبكر الذي يغيب عنا تماماً. فتجد الكثير من الأبناء يبلغون مرحلة الجامعة وهم لا يجيدون أية حرفة سوى صناعة الضجر.

فالفلبين التي لا تبدو على الخارطة دولة مؤثرة، باستطاعتها أن تشلّ الاقتصاد العالمي بأسره.

علينا أن نحترم العنصر البشري الفلبيني ليس من خلال استيراده فقط بل عبر التعلم منه ومن تجربته الثرية.

علينا أن نتعلم ونعلم أولادنا قيادة وصيانة وتشغيل السفن والناقلات، والتخطيط والتمريض، والدقة والإخلاص حتى لا نصبح كمحمد المغربي الذي شعر أنه فقد شهيته وطموحاته بعد أن تركه عاملاه الفلبينيان.

ويجب أن نتذكر جيداً أننا سنموت ببطء لو انفضّ الفلبينيون من حولنا. فلن نستطيع أن نأكل، وأن ننهض. فمن سينقل وقودنا، ويجلب طعامنا؟!

جرب أن تصبح سعيداً

لم أشعر بسعادة منذ زمن طويل كما شعرت بها عندما هاتفت والد صديقي. شعرت بسعادة هائلة اجتاحتني فور أن تحدثت معه. مكالمة قصيرة جداً لم تتجاوز دقيقتين عبرت فيها عن امتناني له ولابنه أحالت يومي إلى كرنفال بهجة. ثمة أشياء صغيرة للغاية بوسعها أن تزرع حقول الفرح في صدرك. الدكتور بول جرينجارد، الحائز على جائزة نوبل في الطب عام 2000، أحرز العديد من الانتصارات البحثية بعد رسائل كتبها لطهاة وسائقين وأم لم يلتقها. فجرينجارد الذي ماتت أمه أثناء وضعه، لا يفوز بالسعادة وصفاء الذهن إلا عندما يشعل ابتسامة شخص ولو عن بعد. هذه الرسائل الصغيرة التي يكتبها، عالم الأعصاب الأمريكي الشهير، والتي لا تزيد عن جملتين وأحياناً كلمتين كان لها أثر كبير في تجلّيه ونجاحه العملي والاجتماعي. يعتقد بول أن السعادة الأبدية لا تأتي عن طريق الجوائز والمال. فهي تخفت مع مرور الأيام. لكنها تدوم عندما تزرع رسائل الشكر والامتنان في يومك، فتحصد الفرح في قلبك وغيرك. يقول الشاعر الألماني راينر ريلكه: «السعادة شعور مذهل يملؤك عندما

تدخل السرور إلى قلوب الآخرين». إنني لا يمكن أن أصف لكم حجم هذه السعادة التي تنتشر في الخلايا بسخاء إثر رسالة تكتبونها أو مكالمة قصيرة تجرونها إلا عندما تجربون بأنفسكم. بعضكم سيطير وبعضكم الآخر سيسبح في فضاء لا حد له من السرور والحبور.

إدخال السعادة إلى القلوب عبر رسائل ومكالمات امتنان مفاجئة هي إحدى الوسائل. لكن ليست كلها. الباحث المكسيكي، ماريو مولينا، الحائز على نوبل في الكيمياء عام 1995، لديه مبادرة مبتكرة في إسعاد الآخرين. فقد كان يقوم أسبوعياً بتحضير الطعام لفنيِّي الصيانة في المختبر الذي كان يعمل فيه في جامعة كاليفورنيا - بركلي. فرغم انشغاله الكبير إلا أن إعداد الطعام لهؤلاء الفنيين كان يشكل له «متعة لا تضاهيها متعة». ويؤكد الدكتور مولينا دوماً أن السعادة الطفيفة التي كان يرسمها على وجوههم وراء السعادة الكبيرة التي سكنت روحه وأصابعه وأبحاثه.

جرّبوا أن تفاجِئوا حارس أمن بوجبة منزلية طازجة أو عصير بارد كيف ستكون ردّة فعله؟ كيف سيكون حجم ابتسامته؟ إنها مبادرة ستترك أثراً عميقاً ليس في نفسه فحسب بل في نفوسكم. ستبدّد أيَّ حزن في داخلكم وستفتح شهيتكم للأمل.

إنّ السعادة تعيش بجوارنا، بجوارنا تماماً. لكننا لا نشعر بها، بل نركلها كلما دنت نحونا. ألم يقل قاسم أمين: «إن السعادة كرة نركلها بأقدامنا عندما نقترب منها. ونعدو وراءها عندما تبتعد عنا»؟

علينا أن نتحرّر من الأفكار التقليدية التي تختصر السعادة في السفر والطعام. أو في ألعاب الفيديو ومشاهدة الأفلام. هناك سعادة عظيمة نستطيع أن نقتنيها بجرّة قلم أو باتصال سريع. سعادة في متناولنا.

كم واحداً منا جرب أن يفتش عن رقم أستاذه المفضل الذي درّسه في المرحلة الابتدائية أو حتى الجامعية؛ ليهاتفه ويشكره على جهده ونبله؟ كم واحداً منا حاول أن يتوقف أمام إحدى دور رعاية المسنين وفي يده كتب ممتعة وشهية يوزعها على نزلائها؟ يقول سقراط: «أعمل لسعادتي إذا عملت لسعادة الآخرين». إن السعادة الحقيقية ليست في الأخذ بل في العطاء. فلنعمل على تكريس هذا المضمون لننعم بالارتياح والسكينة.

كلّموا آباء أصدقائكم على حين غِرّة. عدّدوا على مسامعهم مناقب أبنائهم التي ورثوها منهم لتعانقوا سعادة لا تُحدّ ولا تُجارى. اكتبوا لمن تحبون قبل أن تخلدوا إلى

النوم. وتذكروا أن رسالتكم لن تغفو معكم. ستظل مستيقظة، مستيقظة إلى الأبد.

«جلدي... جلدي»

ترافق الهندي شرف الدين شمس الدين (36 عاماً) صيدلية متحركة أينما ولّى وجهه. تنبعث من جسده رائحة المرض ومن لسانه يفوح الإحباط. يعمل شرف سائق شاحنة منذ 4 سنوات دون أن يحصل على يوم إجازة. يقضي أيامه سائقاً للشاحنة أو نائماً فيها. يشعر أنه مريض، لكن لا يعرف بماذا. كلما حاول أن يزور طبيباً يرفض رئيسه بذريعة أن الشركة مرتبطة بمواعيد صارمة مع عملائها لا تسمح له بالتفريط بدقيقة في عيادة. خلال أكثر من 9 ساعات قضيتها بجوار شرف وهو يقود شاحنته من الدمام إلى الرياض تلقى من رئيسه السعودي نحو 3 اتصالات تقتصر على كلمة واحدة باللغة الهندية يرددها 3 مرات بصوت عال تقصف أذنه وأذني: «جلدي... جلدي... جلدي» أي أسرع باللغة العربية. تحض هذه الاتصالات شرف على أن يركض بسرعة تتجاوز 100 كلم في الساعة، في حين تهتز بنا الشاحنة كأننا نركب قطار الموت. لا يستبعد شرف أن يلقى حتفه في حادث مروري. يقول والهلع يعتريني: «أشاهد دائماً جثثا مسجاة على أطراف الطريق. أحس أنني سأكون بينهم يوماً ما».

يتقاضى شرف شهريا 700 ريال سعودي يوزعها على أدويته وأبنائه الثلاثة في الهند. وعندما سألته عن أمنيته أجاب وهو يتثاءب «أريد أن أنام 5 ساعات متواصلة» فمهمة رئيسه الرئيسة هي ألا يجعله ينام أكثر من 4 ساعات!

في محطة وقود بالقرب من «خريص» تناولت طعام الغداء مع السائق الباكستاني غلام خان (47 سنة) الذي يعمل سائق شاحنة في المملكة منذ 10 أعوام. فور أن شاهدته توقعت أن عمره يتجاوز الستين بسبب التجاعيد التي تطفو على جلده وتقوس ظهره. يقول: «تعرضت إلى حادثين مروريَّين أدّيا إلى تهشم ظهري». تغيّرت الشوارع التي يرتادها غلام. تغيرت الشاحنات التي يقودها، لكن راتبه لم يتغيّر. ظل 600 ريال منذ أول يوم عمل فيه حتى اليوم. عندما سأل غلام رئيسه أن يرفع راتبه قال له: «يجب أن تشكرنا لأننا سمحنا لمثلك بالعمل لدينا، انظر إلى انحناءتك. إذا كررت المحاولة فسوف أطردك من الشركة». لم يكرر غلام محاولته. ظل صامتاً ومجروحاً منذ عامين. ينزف قائلاً: «لدي خمس بنات وأمهم في باكستان. كيف يعشن لو تخلّيت عن عملي؟».

وفي نفس محطة الوقود شاهدت السائق الباكستاني محمد حسين (31 عاماً) القادم من جدة بعد رحلة طويلة

استغرقت 7 أيام. يتذكر محمد أن ثعباناً لدغه قبل 4 أعوام وكاد يقتله لولا لطف الله. وسبق أن تعطلت سيارته في طريقه إلى جازان ولم ترسل الشركة مندوباً له إلا بعد مرور 4 أيام. يقول: «لا أحد يقف لسائقي الشاحنة. يعتقدون أننا مجرمون». يتمنى محمد أن ينام في منزل ويشاهد التلفزيون مثل قريبه. ينتحب: «ابن عمي يعمل سائقاً لعائلة سعودية يتقاضى 2000 ريال كراتب شهري ولديه تلفزيون في غرفته». في حين أن راتب محمد 700 ريال، ولا يشاهد التلفزيون إلا في أحلامه. وينتظر محمد فصل الشتاء على أحر من الجمر. فهو يقطع الفيافي والوديان دون مكيّف. يقول: «وبخني رئيسي لأن رائحتي عرق. كيف أستطيع ألا أعرق وأنا أسافر في القيظ دون مكيّف؟».

معاناة كبيرة تذرفها وجوه السائقين في السعودية تنعكس على طرقنا السريعة. هذه الطرق المتخمة بالمخالفات. هذه الطرق التي أصبحت مسرحاً للحوادث ومقبرة للموتى.

سائقو الشاحنات في أغلب دول العالم يحصلون على رواتب كبيرة وامتيازات عالية نظراً لصعوبة مهنتهم ووعورتها، لكن لدينا يحصلون على رواتب ضئيلة في ظل جشع رجال الأعمال وغياب الرقابة.

من المؤلم أن أعمال النقل في القطاع الخاص تحقق أرقاماً قياسية في حين حقوق السائقين لدينا تسجل أدنى مستوياتها على مستوى العالم.

أتمنى من أي مسؤول أن يستقل أي شاحنة ليسمع بأم أذنه كم «جلدي» تنهمر، ليرى بأم عينه كم كارثة تختمر.

حراس الكراسي

يقتحم موظفون فظون قاعة أي حفل رسمي أو مؤتمر قبل انعقاده بربع ساعة. ينتزعون أسماء المدعوين الموضوعة على الكراسي الفارغة ويضعون أجسادهم مكانها إلى حين وصول أرباب عملهم وسط نظرات استهجان واسعة يقابلونها بابتسامات فجة.

حراس الكراسي، سلالة من الموظفين تترعرع في الوزارات والأجهزة الحكومية والخاصة. هدفها هو جلوس رؤسائهم في الصفوف الأمامية في الاحتفالات الرسمية والمؤتمرات حتى لو كانوا أقل الحضور شأناً ومكانة.

الأسبوع الماضي حضرت مبكراً احتفالاً علمياً في جدة وشاهدت عن كثب كيف يحصل هؤلاء على المقاعد والازدراء.

يبدأون مهمتهم بمسح شامل وسريع للمقاعد الرئيسة. ثم يحددون المقاعد التي يسهل السطو عليها، كالخاصة بالأكاديميين والأجانب، فهم «الحلقة الأضعف» في مجتمعنا. ثم يسارعون في أخذها عنوة متسلّحين بمشالحهم الباهظة وملامحهم الناشفة.

ما يقوم به «حراس الكراسي» في قاعات الاحتفالات والمناسبات العامة يعكس ما يقومون به في الخفاء، عندما ينهبون فرص وحقوق الآخرين لمصلحة مديريهم مستغلين الطيبة والتسامح اللذين يسكنان من حولهم.

هؤلاء لا يتأبدون حراساً، إذ يكبرون سريعاً، يتحوّلون خلال فترة قياسية إلى وكلاء ومديرين نافذين يمارسون أدواراً أكبر وأبشع.

أكثر ما يحزنني وغيري هو وصول غير الموهوبين وغير الجديرين إلى المواقع الأمامية لأنهم سيقمعون أي مبدع، سيدوسون على أية موهبة تعترض طريقهم.

الدكتور صالح الفواز، أستاذ علم الاجتماع، لديه أكثر من 6 كتب في تخصصه والعديد من المقالات المنشورة في أهم الدوريات المتخصصة، وجدته حزيناً في أحد مطاعم جدة مطلع شهر مارس الماضي. وعندما سألته عن سبب يأسه الذي يقطنه أجابني بعد أن أخذ نفسا عميقاً «لا أستطيع أن أحمل مشلح رئيسي».

انصرف الفواز عن العمل في الجامعة لأنه يرى أن تقدمه الوظيفي يتطلب أن يقوم «بأدوار غير أكاديمية».

هناك آلاف واجهوا ويواجهون مصير الفواز. عبدالعزيز محمد السليم (38 عاماً) أحدهم. فقد غادر

وظيفته في وزارة التربية لأنه لا يستطيع أن يقود سيارة رئيسه، لا يستطيع مرافقة رئيسه وتسليته. يملك حالياً محلاً لبيع الأثاث في شمال الرياض وغضباً عارماً تجاه وظيفته: «أنا حانق لأن معايير النجاح لدينا مقلوبة. يجب أن تصبح خادماً لرئيسك لكي تنمو وظيفياً».

قدم عبد العزيز استقالته وهو يحتسي الألم «مكره أخاك لا بطل»، مفضلاً بيع قطع القماش والستائر على العمل مع «أشخاص انتهازيين» على حد قوله.

استشْرَتْ هذه النوعيات من المخلوقات في أغلب المؤسسات العامة والخاصة. أصبح من غير المألوف أن تشاهد مديراً موهوباً. الموهوب أصبح عبئاً على إدارته ومؤسسته، بينما من هو خلاف ذلك يبرز في لمح البصر، تمهد أمامه الطرق وتعبد.

للأسف، «حراس الكراسي» و«حاملو البشوت» هم من يصل إلى مواقع الصدارة بسرعة البرق.

في المقابل، مازال أحد الأصدقاء يتذكر المواقف التي تعرض لها عندما ترأسه مهندس صيني. فقد تعرض لإنذار شفهي منه حينما حجز له جناحاً في فندق خلال رحلة عمل جمعتهما. لم ينس مازن كيف أقام رئيسه الشرق

آسيوي الدنيا ولم يقعدها عندما دخل غرفته ووجدها جناحاً وليس غرفة كما كان ينتظر. أصبح مازن إثر ترقيته لغرفة رئيسه في عداد الموتى في القسم الذي يعمل فيه.

يقول مازن: «أصبح رئيسي لا يبتسم في وجهي منذ ذلك الحين».

الذنب الذي اقترفه مازن لا يتحمله بالكامل، فثقافة العمل لدينا هي التي أنجبت هذه السلوكيات التي حولت الموظفين إلى كائنات مسخرة لخدمة رؤسائها وإسعادهم خارج إطار العمل.

وهذه الثقافة لا يكتسبها الموظف في عمله، بل يلتقطها مبكراً من المدرسة. فنحن لمسنا كيف يحصل ابن مدير الجوازات بحظوة واهتمام المدرسين، لأن جوازاتهم لن تمر على موظفين بيروقراطيين. ولاحظنا كيف يحصل ابن مدير المرور على ابتسامات جمة من معلمينا لم نحظَ حتى برائحتها.

نكبر ونحن نتصفح هذه المشاهد التي تجعل منا كائنات ناقمة ومستعدة للتنازل عن الكثير من القيم لترقى وتصعد كالبقية. ندهس موهبتنا وأحلامنا، ونتحول إلى مكائن لا تردد سوى «سم طال عمرك».

عندما يصل أحدنا إلى موقع المسؤولية لا يجب أن نسأله كم إنجازاً ودورة تدريبية أحرزت، بل كم كرسياً حجزت، ومشلحاً حملت؟!

«حرمة» في الطائرة!

«محمد، هل تجلس خلفك أي «حرمة»؟» سؤال يطلقه مضيف الخطوط السعودية، عصام كرصاصة باتجاه زميله الآخر حينما يلمح أي فتاة أو سيدة تدخل الطائرة. خلال أقل من ربع ساعة تحركت من مقعدي أربع مرات إثر تدفق النساء على الطائرة. المضيفون يصابون بحالة هيستيرية عندما يشاهدون سيدة سعودية أمامهم تجلس بجوار رجل. فيتطوعون بعرض مقاعد بديلة لهن حتى قبل أن يسجلوا اعتراضاً على مقاعدهن الأصلية. فقد فصلوا شاباً عن زوجته ليضعوا محله فتاة أخرى. فكلما ازداد عدد النساء في الطائرة ازدادت الفوضى فيها. رجل طاعن في السن طلبت منه المضيفة أن ينتظر طويلاً واقفاً، وهو متكئ على ابنه؛ لأن مقعده فرض عليه الجلوس بجوار فتاة. الفتاة أشفقت على الكهل فسمحت له بالجلوس بجوارها، بيد أن المضيفة المغربية «كشت» كلمات المسافرة مرددة «لا» ثلاث مرات، ثم قالت: «عليه أن ينتظر حتى نجد حلاً آخر».

ظللنا -ركاب طائرة الخطوط السعودية المتجهة من الدمام إلى الرياض الأسبوع الماضي- نتابع هذه الفيلم

الكوميدي الذي تحول إلى درامي في آخر لحظاته حتى أغلقت الطائرة أبوابها. مهندس هندي يجلس بجواري وصف الفيلم الذي تابعناه معاً بكلمتين: «إنه مضحك».

لم تقتصر المشاهد الكوميدية على الأحداث التي جرت على الأرض. فالكوميديا استمرت ونحن في كبد السماء. فقد أرهق مسافر أنيق المضيفة بأسئلته. تارة يسألها عن موعد الوصول، وتارة أخرى يسألها عن جنسية قائد الطائرة. وكلما مرت بجواره وهي تركض كبح جماحها سائلاً: «ماء لو سمحتِ» أو «هل لديكم تفاح؟». ظل طوال الرحلة التي تمتد إلى نحو ساعة مشغولاً وشاغلاً المضيفة بأسئلة وطلبات أثارت ضيقها وضيق كل من تسنّى له الاستماع إليه. وقبل هبوط الطائرة بأقل من خمس دقائق عرقل السائل مضيفاً آخر مر بجانبه بسؤال أخير: «أين زميلتك، لماذا اختفت؟». فأجابه المضيف مازحاً: «اضطرت إلى القفز من الطائرة هروباً من أسئلتك».

ولم تخلُ رحلة العودة من الرياض من مواقف مشابهة. فقد نشب مسافر ليس في حلق المضيفة هذه المرة كما في رحلة الذهاب، بل في حلق مسافرة جلست بجوارنا. سألها أن يستعير الصحيفة التي تتصفحها، فرفضت بذريعة أنها

تقرأها في هذه الأثناء. وكرر الطلب مرتين قبل أن تضعها في جيب المقعد الذي أمامها. سحبها من جيب المقعد كلص. وأخذ يكتب أعلى ترويستها بحماسة رقم جواله بخط عريض قبل أن يودعها في حضنها وسط امتعاضنا.

أكاد أجزم أن المشاهد التي رصدت بعضها لا تندلع إلا في طائراتنا السعودية التي أصبحت مصنعاً لأفلام سينمائية كوميدية لم تستثمر بعد.

إن هذه المشاهد رغم أنها تفجر ضحكاً كثيراً من شفاهنا، إلا أنها في نفس الوقت تعمق جروحاً غائرة في أعماقنا لأنها تجسد تخلفنا أمامنا والعالم.

فالفوضى وتغيير المقاعد والتحرش لا تعكس أي مظهر حضاري في حافلة على الأرض فكيف في طائرة تعانق السحاب.

إذا كان لخطوطنا ونسائنا أي اعتراض على أي مقعد فليتم حسمه قبل أن نركب. فقد سئمنا من الوقوف طويلاً، ومن الانتظار طويلاً. وحان الآوان لنقلع، ونسرع.

حمّاماتنا وحمّاماتهم

أخبرني صديقي أن ابنه ذا الثماني سنوات صار يحب المدرسة أخيراً بعد أن انتقل إلى أخرى جديدة. فقد أصبح لا يدّعي المرض لكي يغيب، ويستيقظ مبكراً بعد أن كان ينام إلى أن يصل إلى فصله، ويشرب كأس الحليب بعد أن كان يقاطعه، ويتناول فطوره بنهم بعد أن كان يشجبه. وعندما استفسرت من صديقي عن سبب هذا التغير الذي طرأ على ابنه بعد أن انتقل إلى مدرسة أخرى سألني أن أوجه سؤالي إلى صاحب الشأن. وبالفعل سألت ابنه عن سر المدرسة الجديدة التي قلبت كيانه وغيرت ألوانه، فأجابني بتلقائية وهو يبتسم: «يكفي أن حمّاماتهم زي حمّامات البحرين!». ويقصد الطفل خالد أن مدرسته الجديدة تتوافر فيها دورات مياه كالتي نرتادها في المرافق العامة والخاصة في مملكة البحرين الشقيقة وتمتاز بنظافتها.

قبل أسبوع فقط كنت أشاهد نشرة الأخبار الرئيسة على قناة دبي. وعرضت النشرة تقريراً عن إقبال السياح المتزايد على التسوق في مجمعات دبي العديدة. ونقلت لنا عدسة الكاميرا الآلاف وهم يتجولون في أروقة المجمعات،

وكأن أبا نواس يراهم عندما كتب:

ترى الناس أفواجاً إلى باب داره   كأنهمُ رِجْلاً دَبىً وجرادِ

وسألت المراسلة التلفزيونية السياح الذين جاؤوا من كل فج عميق عن رأيهم في دبي، فأجاب الفرنسي إنه يفضل دبي لأن الخيارات فيها عديدة، أما الفنلندي فأبدى إعجابه بالمطاعم الدولية المتنوعة التي تنتشر بين ضلوعها. وحينما حان دور السعودي قال بعد أن بلع ريقه وحرك شماغه وأخمد عويل أطفاله الذين يحيطون به: «أزور دبي دائماً لأن شوارعها واسعة وآمنة، ودورات مياهها نظيفة!».

في مطار ميلان الإيطالية التقيت شاباً سعودياً واعداً أثناء رحلة العودة إلى المملكة، وطلبت منه أن يفشي أمنية واحدة يغرفها من رأسه على عجلٍ. فكانت أمنيته أن: «نقل دورات مياه مطار ميلان إلى مطار الملك عبدالعزيز في جدة».

الإجابات السابقة تجسد معاناتنا الأزلية مع دورات المياه. هذه المعاناة التي أضحت ترافقنا وأحاديثنا وأمنياتنا منذ أن ندخل إلى المدرسة حتى نموت. هذه المعاناة التي جعلتنا نتقزز من المدرسة ونحاول الفرار منها. هذه المعاناة التي جعلتنا نشاهد شبانا وأطفالاً يقضون حاجتهم،

على ضفاف الطرق الرئيسية والشوراع. فقد شاهدت الشهر الماضي، خلف أحد المجمعات التجارية في العاصمة البحرينية شاباً يرتدي شماغاً يتبول (أعزكم الله) بجوار سيارته، وكان الناس حوله يصرخون : «أكيد سعودي!».

في المقابل، مازلت أتذكر زيارتي لمدرسة هيونداي في مدينة أولسان الكورية والتي عهدت صيانة دورات مياهها لطلاب المرحلة المتوسطة الذين كانوا يتناوبون على تنظيفها. فقد كانوا يتنافسون بحماسة على تنظيف دورات المياه. وكانت المدرسة تكرم الطلبة المتميزين في التنظيف بالتصوير مع عمدة المدينة في نهاية العام، مما انعكس إيجاباً على المدرسة والمدينة. يقول لي مدير المدرسة الكوري هوانغ شو: «أصبح كل شيء نظيفاً حولنا. نقل الطالب سلوكه في المدرسة إلى منزله ومحيطه. نتطلع إلى أن يرتبط أي سلوك إيجابي في الداخل والخارج بالكوريين».

وفي تايلاند يقوم طلاب المدارس الابتدائية، مقابل أجور زهيدة، بتنظيف دورات المياه الكثيرة التي تتوزع بانتظام حول شواطئها. يوفر لك هؤلاء الأطفال الماء، والمناديل، والصابون، وابتسامة ستحتفظ بها حتى تصل إلى وطنك.

أما في سنغافورة، فأقام نحو 53 رجلاً وسيدة مشروعاً لتنمية المرافق العامة تحت شعار «من أجل سنغافورة» من أجل صيانة وإنشاء دورات مياه عديدة لدعم السياحة والمرافق العامة.

أكاد أجزم أن دورات مياهنا طردت الكثير من سياحنا قبل أوانهم. جعلت الكثيرين يفكرون غير مرة قبل أن يتصفحوا مدننا وقبل أن يسلكوا طرقنا السريعة المحشوة بدورات مياه لا تدار ولا تزار.

علينا أن نكافح دورات المياه الرثّة، التي جعلتنا شعباً يعتاد قضاء حاجته في الخلاء، على مرأى من الأموات والأحياء.

سكري القصيم أو خلاص الأحساء؟

جلست بجوار مسافر حانق على متن طائرة متجهة من جدة إلى الدمام الشهر الماضي. تكاد عيناه تقفزان من رأسه من فرط الغضب. كان يتحدث عبر الهاتف قبل إقلاع الطائرة بصوت مؤذٍ مع زوجته أو أخته. يداه منتفختان متسختان كأنهما قدمان لم يعرفا الحذاء في حياتهما. كنت أحمل معي صحيفة، وكتاباً. عرضتهما عليه فور أن أغلق هاتفه ووضعه في جيبه. لكنه رفضهما متذرعاً «هل أستطيع أن أقرأ أو أستمتع ولدي رئيس في العمل يرفع الضغط!». فرددت عليه قائلاً: «انسَ رئيسك وهمومك، واقرأ لعلك تهدأ وتستمتع ولو مؤقتاً». لم أكد انتهي من جملتي القصيرة حتى انهمر دون تدفق، كأنني فتحت صنبوراً ولم أعرف كيف أغلقه. استهل نحيبه قائلاً: «لو التقيت رئيسي أو عملت تحت إدارته ستعلم سبب غضبي. ستعلم سبب عدم قدرتي على الاستمتاع. مهما قدمت له سأظل مقصراً وسيئا». ولسان حاله يردد بيت المعري:

بعضُ الرّجالِ كقبرِ المَيْتِ تمنحُهُ

أعزَّ شيءٍ ولا يعُطيكَ تَعويضاً

واصل جاري اندلاعه دون هوادة أو استراحة، حتى وصل إلى مسقط رأس رئيسه. فلم تنج منطقة رئيسه من هجومه الذي يدوس على كل شيء يعترض طريقه. فقد وصف أبناء المنطقة التي نبع منها رئيسه «بالبخلاء والأنانيين». فقلت له باسماً: «لِمَ لا تتخلَّ عن التعميم، فالسجن مليء بالمظاليم». فرد بحدة كادت تقتلع أذني: «من حسن حظك أنك لم تعمل معهم ولم تعش معهم». فأجبته بصدق: «وما رأيك لو قلت لك إنني من نفس منطقة رئيسك!»، حينها اعتذر، وذهب إلى دورة المياه، ولم يعد حتى اللحظة.

في نفس السياق، أذكر أنني كنت في منزل أحد الأصدقاء في الأحساء قبل عدة شهور، وفور وصولنا قدم المضيف تمراً سكرياً من القصيم، مما أثار حفيظة أحد الحضور الذي قام من مقعده وقال: «أهذا سكري؟» فأجابة المضيف بالإيجاب. لم ترق الإجابة للضيف الساخط الذي قال: «كيف تقدم لنا تمر القصيم وأنت ابن الأحساء، هل سمعت أن قصيمياً قدم تمراً أحسائياً في منزله؟!». حاولنا أن نتدخل لفض الاشتباك، لكن دون جدوى!

تخيلوا تمراً يقسمنا. وبإمكاننا أن نقيس على هذه القصة. فطالما سمعنا أن هناك من لا يبتاع لبناً لأن مصدره

المنطقة الفلانية، أو لأن صاحبه يعتنق مذهباً غير الذي نعتنقه.

وقد انتبه حديثاً العديد من أرباب المصانع والمخابز التي تنتشر منتجاتها في أنحاء المملكة إلى انصراف زبائن غير قليلين عن اقتناء بضاعتهم وتراجع مبيعاتهم بسبب استخدامهم لأسماء مناطق وعوائل، مما جعلهم يغيّرون أسماء منتجاتهم حتى يتم التعامل مع منتجاتهم على أساس الجودة لا المصدر. وحتى يكسبوا أكبر شريحة من المستهلكين ولا يقتصروا على فئة محددة.

أعلم تماماً أن المناطقية والقبلية والطائفية تختبئ في كل الأقطار والأمصار، ولكن علينا أن نتصدى لها في وطننا. نتصدى لها على نحو جدي وفعال. قطعاً، نحن لا نتشابه ولا يمكن أن نكون نسخة واحدة، وننتمي إلى مناطق وقبائل مختلفة بيد أننا ننتمي إلى وطن واحد بحاجة إلى تماسكنا وتعاضدنا وتلاحمنا لنمضي، لنمضي بسرعة.

اليوم نحتفل باليوم الوطني الثامن والسبعين، ونحن نعيش واقعاً مزدهراً. لكنه بحاجة إلى المزيد من العمل المشترك، والحوار المشترك، والحلم المشترك والحب. فمازالت الكثير من المنازل تنتقص من المنازل المجاورة.

ومازالت تسكننا الاتهامات تجاه بعضنا البعض، والسخرية من بعضنا البعض.

دعونا نعمل معا ابتداء من اليوم لترسيخ قيم العدل، والمساواة، والتكافل، والتسامح في أطفالنا وإخواننا. دعونا نتمتع باختلافنا في حدود ما أباحته الشريعة، وأنه لا ضرر ولا ضرار.

دعونا ننتقد رؤساءنا في صميم أدائهم وعملهم وليس في خلفياتهم وجذورهم. دعوننا نلتهم «عجوة المدينة»، و«سكري القصيم» حتى لو كنا أبناء النخيل، أبناء الأحساء.

عسل وبصل

درست قبل ست سنوات مادة الإحصاء في أمريكا مع فتاة تبغض الزواج. ترتدي بإسراف «فانلات» مرسوماً عليها وجوه رجال بشعين تعلوهم علامة «إكس». وتذيِّل توقيعها، في بريدها الإلكتروني، بعبارة الروائية البريطانية، ماري كوريللي، الشهيرة: «لا أريد زوجاً؛ لأن لدي حيوانات أليفة تؤدي نفس دوره. لدي كلب ينبح كل صباح، وببغاء تثرثر طوال الظهر والعصر، وهرٌّ يأتي خلسة إلى المنزل في ساعة متأخرة من الليل».

وكان أحد زملائي السعوديين أحد أكبر المناهضين لها، يستعرض صور زوجته وأطفاله المبتسمين أمامها بتبذير نكاية بها ولسان حاله يقول: «موتي قهراً!».

وكلما استفزها ابن جلدتنا بعثت له رابطاً إلكترونياً يحتوي على مشاهد لأسر منكوبة إثر الزواج، أو أخباراً صحفية تظهر اعتداءات الآباء على ذويهم. وكان الفصل برمته يتفرج بحماسة على القصف المتبادل. فقد كانت تصلنا نسخ من تلك الروابط والرسائل كأننا نجلس حول حلبة ملاكمة، نتجرع البيبسي ونهتف مع كل لكمة.

وحينما أرسلت له زميلتنا عبارة الممثل والمخرج الأمريكي وودي ألين: «لم أشعر أنا وزوجتي بلذة مشتركة إلا عندما وقع القاضي أوراق الطلاق». ردّ عليها بـ«إيميل» أرفق فيه صورة ضوئية لبطاقة رومانسية أهدتها له زوجته كتبت فيها: «عالمي أصبح معك أزكى وأشهى. لا أدري ماذا سأفعل لو لم تكن في حياتي. سأكون قطعاً إما محاصرة في مستشفى المجانين أو أحد أنصار المخرج الفارغ وودي ألين».

وعندما كتب زميلنا مقالاً في نشرة الجامعة يتناول خلالها دور الأزواج في تشييد الأسر الناجحة، ردّت عليه في العدد التالي بمقال طويل استهلته بتصريح ساخر للكوميديان الأمريكي جاكي ماسون، يقول فيه: «ثمانون في المائة من الرجال المتزوجين يخونون في أمريكا. والبقية يخونون في أوروبا».

وفور أن سألته زميلته اللدودة في الفصل: «كيف تستطيع أن تنام بجوار شخص يشخر؟»، أجابها بسؤال مباغت: «هل جرّبتِ أن تتناولي فطورك في الفراش؟ اعتدت أنا وزوجتي إعداد الفطور لبعضنا البعض».

استرجعت هذه الحرب الضروس بعد أن جمعنا الفيس بوك (Facebook) مؤخراً بعد سنوات من التشرّد

والشتات. المفاجأة كانت أن زميلتنا العزباء الشهيرة، المناوئة للزواج، تزوجت وأنجبت. وتعيش حياة سعيدة مع زوجها وطفلها، حسب تعبيرها. في حين أن زميلنا المنافح عن الحياة الزوجية يعيش حياة أسرية «مضطربة» وفق وصفه. وعندما سألته عن السبب أجاب مازحاً: «أكل الأجبان يومياً يسبب الإمساك».

قصة زميلتنا وزميلنا أعلاه تؤكد أن الآراء المتطرفة لا تدوم، بل تنهار وتهرم مع مرور الوقت. فلا الانصراف عن الزواج خيار منطقي وموضوعي، ولا تصوير الحياة الزوجية بالوردية أمر موفق.

معاناة الكثير من المتزوّجين والمتزوّجات، على حد سواء، تكمن في أنهم كانوا يعتقدون أن الزواج هو كالاستجمام الدائم على شاطئ مبلل بالفرح والبهجة، مما ينعكس سلبياً على حياتهم عندما يقترن أحدهم فعلياً بشريك العمر، حيث يكتشفان أن الزواج ليس كما كانا يتصورانه. فمنذ أن يغلق الزوجان الباب عليهما تجتاحهما المسؤوليات شيئاً فشيئاً لتحل محل المشاعر الرومانسية المتأججة، فيتسرب الملل ويشيع الإحباط إذا لم يتعاملا بتوازن مع واجباتهما وسعادتهما المشتركة.

المقدم على الحياة الزوجية عليه ألا يفرط في التفاؤل، ولا يدع المسؤوليات والواجبات والأطفال تسرق حياته وزوجته منه والعكس صحيح.

وإذا أراد أحدهما من الآخر شيئاً عليه أن يبادر، فإذا سئم الزوج من تسريحة زوجته أو هيئتها، فعليه أن يبدأ بنفسه أولاً، يعتني بهندامه ومظهره، فمن غير اللائق أن ينتقد الرجل لباس زوجته وهو يرتدي «السروال والفانلة».

الحياة الزوجية ليست كلها عسلاً ولا بصلاً، لكنها لا تخلو من الاثنين. الفطور لا يكتمل دون عسل، والغداء لا يغوي بلا بصل.

عقولهم وبطوننا!

استقبلني بحفاوة مفرطة. حمل حقيبتي بمتعة. وإخالني لو طلبت منه أن يحملني ما تردد. كان يرتدي ساعة رولكس فضية في معصمه الأيسر. ونظارة أنيقة من دون إطارات. هيئته توحي بأنه بائع مجوهرات عتيق وليس سائق سيارة أجرة. فور أن ركبنا السيارة سألني عن وجهتي بصوت خفيض وعندما أجبته شكرني بإسراف كأنني أهديته مليوناً.

لم يفاجئني السائق الذي استقبلني في مطار لوس أنجلوس قبل 6 سنوات بكريم خصاله وطيب سجاياه بقدر ما فاجأتني صورة شخصية ضخمة بالأبيض والأسود غرسها أمام مقعدي مباشرة، لشخص يشبه القضاة الإنجليز الأوائل: شنب كثيف، ولحية شقراء كثة، وملامح صارمة. وعندما هزمني فضولي سألته عن هوية صاحب الصورة. فابتسم لبرهة كأنه سمع نبأ سعيداً ثم قال بانشراح: «إنه مخترع التخدير، ويليام مورتون». سعادته الهائلة التي استلقت في أعماقه وانهمرت مع صوته جعلتني أحسُّ أنه كان ينتظر هذا السؤال منذ أمد بعيد. بهجته التي فاحت في أرجاء السيارة دفعتني إلى سؤال آخر: «لماذا تضع صورته

على وجه التحديد في سيارتك؟»، فأجابني على جناح السرعة قائلاً: «لأنه لو لم يقم بهذا الاختراع لاستمر الأطباء في ضربنا بمطرقة خلف الجمجمة؛ لنفقد الإحساس والوعي لفترة وجيزة قبل إجراء العمليات الجراحية».

لم يكن هذا التبرير الوحيد الذي ساقه السائق جيم كرير. فلسانه ظل يركض، ويلهث طوال الطريق مادحاً مورتون كأنه يخشى أن نصل دون أن يكمل حديثه عنه. في حين كنت أصغي إليه دون أن أقاطعه، كي لا أفسد العرس الذي اندلع في وجهه. وعند وصولنا إلى شقة صديقي، ترجل من السيارة، وفتح لي الباب ثم أخرج من جيبه بطاقة تحمل اسمه وهاتفه وفيلماً عن مورتون في «سي دي». وحينما حاولت أن أعطيه أجره رفض بشدة جازماً أن إنصاتي له هو الأجرة التي يبتغيها والمكافأة التي يشتهيها. وعندما أصررت على دفع أجرته وافق بشرط أن أتصل به عندما أنتهي من مشاهدة الفيلم الذي أهداني إياه.

وبالفعل هاتفته بعد أن شاهدت الفيلم، وعبّرت له عن امتناني الكبير له ولمورتون. فشكرني شكراً طويلاً لم يقطعه سوى جملة أودعها في أذني ولم تجف بعد: «إنني أفتش عن غير الأمريكيين في المطارات؛ لكي أقول لهم إن

أمريكا ليست مجرد بنتاجون وبوش وملاه. إنها بلد أنجبت أعظم الاكتشافات. أرجو أنك لمست ذلك».

جيم كرير لم يكن سائقاً فحسب، بل رسام مبدع يقضي جلّ يومه في مرسمه بين ريشته وألوانه.

في دفتر يومياتي قصة مشابهة ولكن مع اختلاف المكان والزمان. هذه المرة قبل عامين عندما كنت في أعلى قمة في برج شمال سول في كوريا الجنوبية، يرتفع 1574 قدماً عن سطح الأرض. كنت أسبح في السماء ليلاً، وأتصفح الشوارع الحافلة بالسيارات من أعلى القمة وهي زاخرة بالأضواء كأنها كعكة شوكولا مطرزة بشموع لا تنتهي. كما بدت السيارات صغيرة تركض كأنها تهرب من بعضها. وفي غمرة انهماكي في هذا المشهد، إذا بشاب كوري وادع يبتسم في وجهي ويسألني إذا كنت أملك 10 دقائق ليتكلم معي ومع من معي. لم أتردد في قبول دعوته للحديث لاسيما بعد أن هزّ رفيق رحلتي رأسه معبراً عن موافقته هو الآخر. هبطنا مع الشاب الكوري، الذي لفتني شعره الهائج وحقيبته الضخمة، إلى الدور الأرضي للبرج الذي تقطنه المقاهي والمطاعم الصغيرة. اخترنا أول مقهى. بسطنا أجسادنا على كراسيه وطلبنا مشروبات ساخنة مختلفة. ثم قدم

الشاب الكوري نفسه كطالب طب يدرس في جامعة سول ويحرص على زيارة المرافق السياحية في بلده ومساعدة السياح كلما سنحت له الفرصة. شكرته ورفيقي على اهتمامه ودعوته وأكدنا له عدم حاجتنا لمساعدته في الوقت الراهن. لكنه فجعنا عندما قال: «أنا من أحتاج إلى مساعدتكم». تحسسنا أجنحتنا لنطير خشية أن يطلب نقوداً؟ لكن عدلنا عن تحليقنا عندما استدرك وقال إنه بحاجة إلى آذاننا فقط. وسألنا فقط أن نسمع منه سيرة مقتضبة للمهندس المعماري الكوري كيم سوو جون (20 فبراير/شباط 1931 – 14 يونيو/ حزيران 1986)، أحد أهم المعماريين الذين أنجبهم الشرق الأقصى.

وخلال أقل من 10 دقائق استعرض أمامنا بعض إنجازات كيم سوو المعمارية الخالدة على عجل عبر صور أخرجها من حقيبته ومازالت رطبة في ذاكرتي. وهي تمثل: إستاد سول الأولمبي في جامسيل عام 1977م، ومتحف تشيونجو الوطني في تشيونجو عام 1979م، والمتحف الوطني للعلوم عام 1984م، ومركز الحرية في جونغ غو عام 1963م، ومبنى السفارة الأمريكية في سول عام 1983م.

كما قطف من بستان ذاكرته أزكى المباني المعمارية التي أشاعتها مجلة «الفضاء» التي أسسها سوو عام 1966م، وهي أول مجلة تعنى بالفن والتراث الكوري في كوريا الجنوبية. كما أهدانا قبل أن نغادره مجموعة مسرحيات من إنتاج مسرح «حب الفضاء» الذي أسسه سوو أيضاً في عام 1979م.

ودعنا الشاب الكوري رويو كيم وون لكن لم تودّعنا كلماته الأخيرة التي قال فيها: «إننا نملك أناسا عظيمين. إننا نملك مجداً يجب أن نشيعه ونزهو به». ولو قرأ كيم شعرنا العربي لاستعار هذا البيت الشهير:

لا ينزل المجد إلا في منازلنا

كالنوم ليس له مأوى سوى المقل

في المقابل، أحزن كلما أتذكر العرض الذي قدمه أحد أبناء جلدتي عن «الكبسة» في جامعة دنفر، على هامش معرض أيام في الشرق الأوسط قبل عدة سنوات، والذي حضره أعضاء هيئة تدريس قسم العلوم السياسية. كما يسكنني الظلام كلما تذكرت بعض البرامج التي يقدمها إخواننا في جامعات العالم خلال اليوم الوطني والتي تتركز حول لباسنا التقليدي وأكلاتنا الشعبية.

لدينا قصص إيجابية جديرة أن تروى. علينا أن نستعرضها متى ما أتيحت لنا الفرصة. علينا أن نبتكر ونخترع مناسبات نروّج عبرها عن مبدعينا وثقافتنا كما يفعل جيم كرير ورويو كيم وون ليرى العالم أن لدينا عقولاً وليس مجرد بطون!

فضيحة

ونحن نتجول عصراً في مدينة فورت لودرديل في ولاية فلوريدا الأمريكية بسيارة صديقي الجديد، قال لي إنني سأشاهد اليوم شيئاً لم أره في حياتي. اختلطت مشاعر التوجس والترقب في داخلي تجاه المفاجأة المنتظرة. علامات استفهام هائلة نبتت في رأسي وبجوارها أسئلة متواترة: إلى أين سيقودني هذا الصديق، الذي لم أتعرف عليه سوى قبل ساعات قليلة في الجامعة؟ ماذا لو لم يعجبني المكان الذي يتجه نحوه بعطش. هل آخذ سيارة أجرة وأعود إلى مسكني أم أجامله حتى النهاية؟ وقبل أن أسافر أكثر مع أسئلتي، التفت صديقي نحوي مشيراً إلى وصولنا. فوجئت بالمكان الذي توقفنا فيه. فهو أمام مجمع تجاري اعتيادي. لا يختلف كثيراً عن المجمعات التي تتكاثر في الوطن. ما المدهش والمثير في الموضوع إذاً؟ لم أحاول أن أفشي انطباعي المبكر، فربما شاهدت وشيكاً ما لا عين رأت ولا أذن سمعت.

قبل أن نترجل من سيارته سألته: «هل هناك مهرجان داخل المجمع؟»، أجابني بالنفي، مؤكداً أن المفاجأة ليست

في داخل المجمع بل خارجه، وعلى وجه التحديد في المقهى المجاور. دخلتُ إلى المقهى بمعيته وغضبي. طلب هو فطيرة جبن وقارورة ماء، في حين طلبت قهوة ارتشفتها على مضض. تحايلتُ على ضجري خلال جلوسنا على الطاولات الخارجية للمقهى عبر سؤال رفيقي عن المدينة الجديدة التي سأمكث فيها لفترة غير قصيرة، عن إيجاراتها، وطقسها، وسكانها. تماديت في الاستفسارات حتى نسيت مفاجأة صاحبي. وأثناء حديثنا المتواصل وجدته يهز كتفي بحماسة حتى كاد يخلعه. قلت له ما بك؟ قال: «انظر أمامك. شاهد هذه الفتاة المتجهة نحو المحاسب». طالعتها على عجل، ثم سألته مبتسماً: «هل هذه المفاجأة، هل هي صديقتك؟». أجاب ووجهه يفيض غضباً: «مستحيل... مستحيل!». «إذاً من تكون يا ترى؟»، رد عليّ قائلاً: «إنها سعودية». فأجبته: «وماذا يعني؟ لقد حملتني من طرف المدينة إلى طرفها الآخر لكي تريني فتاة سعودية؟ إنك تمزح بلا شك». سألني أن أصبر قليلاً؛ لأن الموضوع حسب قوله لا ينحصر في جنسيتها بل في سلوكها. ألح عليّ أن انتظر أكثر لأشاهد ماذا ستفعل. تعوذت من الشيطان وانتظرت وأنا أراقبها معه كجاسوسين بليدين. وحين أشعلت سيجارتها، سألني

وهو منفعل: «رأيت بعينك». قلت «نعم»، وما الغريب، فتاة تدخن؟ إنه تصرفها، وهي مسؤولة عنه». قاطعني قائلاً: «لا يا حبيبي، إنها فضيحة. فهي تدخن يومياً هنا، وجميع العرب الذين يرتادون المقهى يعرفون جنسيتها. ربما لا تعلم أنني سعودي. لكن أنا لن أصمت. سأحاول أن أعرف اسمها لأنها تدرس معي في نفس الجامعة وسأصل لولي أمرها ليربيها!».

رغم أني ضد التدخين وأؤمن بأنه ضارّ على صاحبه وعلى من حوله، إلا أنني اختلفت مع رفيقي تماماً في طريقة معالجته للموضوع كوني ضد انتهاك خصوصيات الآخرين وفرض وصاية عليهم. فرسولنا الكريم يقول: «المسلم من سلِم المسلمون من لسانه ويده»، ومن يجعل المعاملة الحسنة دَيْدَنه، إذ يقول، صلى الله عليه وسلم: «الدين المعاملة». وقال أيضاً: «من ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه».

لم أفضل البقاء معه لفترة أطول. فاستأذنت منه مدعياً أن أمامي يوم طويل وشاق غداً في الجامعة وأنا بحاجة إلى الاستعداد له. لكنه رفض أن أغادر محاولاً غوايتي قائلاً: «لدي مكان جميل نقضي فيه سهرتنا مساء اليوم». بيد أني اعتذرت منه ضاحكاً: «اسمح لي. لن استطيع الذهاب معك.

أخشى أن تخبر والدي غداً». غادرته وأنا ابتسم لكن الحزن كان يغمرني، فمازال يستيقظ كلما ارتدت جامعة في الخارج وتأملت علاقة السعوديين بالسعوديات التي يشوبها التربص وتحاصرها الشكوك والظنون.

فالذي يقرأ الحادثة السابقة جيدا، والتي حدثت قبل خمس سنوات تقريبا، قد يدرك لماذا تستنجد الطالبة الصينية المغتربة برفيق فصلها الصيني. وتستعين زميلتها الصومالية بابن جلدتها. لكن آخر ما يمكن أن تفعله السعودية أن تسأل مواطنها أن يساعدها!

إن الفتاة السعودية في الخارج تتردد في أحيان كثيرة في التعاطي مع مواطنها خشية ردة فعله تجاه سؤالها، إلى قلقها من تفسيره وتأويلاته، إلى القصص التي ورثتها عنه من صديقاتها.

شخصياً، عشت في الخارج لسنوات عديدة وتصفحت الريبة التي تقطن السعوديات تجاه أبناء وطنهن هناك. فقد سبق أن درست مادة مع طالبة سعودية في فصل لا يتجاوز عدد طلابه عشرة. طوال مدة الفصل تحاشت تلك الطالبة أن تدخل معي في أي حوار، ولاحظت حرصها الشديد على أن لا يجمعنا فريق عمل واحد في كل المشاريع

التي قمنا بها طوال الفصل الدراسي الطويل، فقد تقاسمت مع زملائي الثمانية مشاريع مختلفة إلا معها.

من المؤلم جداً أن تشاهد طالبة سعودية تتحدث بتلقائية وأريحية مع أمريكي، وبريطاني، وكوري، وباكستاني، فيما تدير وجهها عن السعودي إلا من رحم الله، رغم أن الكثير من شبابنا على قدر كبير من المسؤولية والأخلاق والتميز. إن علاج هذه العلاقة المتوترة بحاجة إلى سنوات عديدة نتبادل فيها الثقة والاحترام ونساعد بعضنا البعض. فالفضيحة الحقيقية ليست في أن تدخن فتاة سعودية. فالتدخين آفة ابتليت بها جميع الأمم والجنسيات رجالاً ونساء. لكن الفضيحة أن نعود من الخارج وقد أنفقنا جل أوقاتنا وأموالنا في مراقبة فلانة وعلانة، ومن مقهى لآخر، ونعود بلا إنجازات وإمكانات ومهارات نجاري فيها الأمم التي سبقتنا للحضارة والتقدم!

«كخه يا بابا»

في سول يسألك الكوري عن عمرك قبل اسمك في لقائكما الأول؛ لكي يتحدث معك بلغة تليق بسنِّك. وفي القاهرة يسألك المصري عن مهنتك حتى يناديك بـ«الباش مهندس» أو «البيه». أما في الرياض فيسألك ابن جلدتك عن أصلك وفصلك ليدعو القبيلة بأسرها لتجلس القرفصاء معكما.

في أحد المطارات الداخلية، سألني شاب صغير بشنب نيّء وشعر كثّ، لا يتجاوز عمره 17 عاماً، ونحن في الطابور الأخير قبل استقلال الطائرة، عن اسمي، فأجبته بسرعة وحبور، لكنه لم يبلع إجابتي المقتضبة. وقفت في حلقه. ردّ بامتعاض: «ماذا أفعل باسمك الأول؟ ما عائلتك؟».

حينما ناولته اسم عائلتي، لم يعده إليّ إلا بعد أن استنفد كل الأسماء التي تقبع في ذاكرته، وتحمل نفس اسمي الأخير. وفيما كنت أستوي على مقعدي في الطائرة، إذا به يضع يده على كتفي ويقول لي بعطش: «نسيت أن أسألك أنت من أين؟ إلى أي قبيلة تنتمي؟».

هذا الحوار الذي عشته قبل عامين اجتاحني مجدداً

قبل أسابيع قليلة عندما التقيتُ طبيب أسنان مصرياً وابنته مُنى (5 سنوات) في أحد المجمعات التجارية في الخبر.

أنفقت مع الدكتور عماد نحو نصف ساعة كاملة حافلة بالإثارة بسبب أسئلة ابنته الذكية. فقد حبستني مُنى في أسئلة لم أخرج منها إلا حينما حان موعد الصلاة. سألتني إذا كنت متزوجاً أم لا، وأين طفلتي ولماذا لا أحملها على كتفي أو أدفع عربتها في هذه الأثناء، وعبّرت عن امتعاضها لعدم وجود دبلة الزواج في خنصري.

أبوها لم ينبس ببنت شفة طوال استجواب ابنته لي مكتفياً بابتسامة هائلة يرسمها على وجهه كلما شعر أنني تورطت أو غرقتُ في أحد أسئلتها العميقة.

الحوار المثير الذي جمعني مع مُنى دفعني لسؤال أبيها عن سر هذا التدفق والحيوية واللياقة التي يتمتع بها لسانها مقارنة ببعض ألسنة أبنائنا الذين في سنّها أو حتى في سنّي!

الدكتور عماد لخص إجابته على استفساري بقوله إنه وزوجته لا يقاطعانها إذا تكلمت. يتحدثان معها كأنها ابنة العشرين. ينتظرانها حتى تنتهي ثم يصوبان أخطاءها، مما جعلها تتحدث بطلاقة لا تتوافر في أطفالنا الذين نتلو

على آذانهم «كخه يا بابا»، و«أح ياماما» حتى ينبت الشعر في شواربهم.

هذه العبارات التي ترافق أطفالنا سنوات طويلة جعلت الكثيرين منهم لا يجيدون الحديث وارتكاب الأسئلة. تبدو جملهم ناقصة وكأن أرتالاً من الفئران الشرهة انقضت عليها بأسنانها الحادة، في حين تبدو جمل الأطفال المصريين وغيرهم أكثر دهشة وانشراحاً.

البدايات المتعثرة لا تقلص حظوظ فرق كرة القدم في الفوز بالدوري فحسب بل تقلص حظوظ الوالدين بالفوز بابن أو ابنة يجيدان الحديث.

تزخر جمل اللبنانيين بعبارات مثل: «إزا بدَّك»، و«إزا حبّيت». في المقابل تبدو جملنا منزوعة الألوان كمنزل فسيح بلا نوافذ.

دائما أقف مذهولاً أمام العبارات التي يغرسها السوريون واللبنانيون والمصريون في أحاديثهم التي يلقونها على مسامعنا في الشارع، والدكاكين، والتلفزيون، متسائلاً: لماذا لا نزرع عبارات مثلها بسخاء في لغتنا وحواراتنا. لماذا نقتصد ونتقشف في تعابيرنا؟

طرق التربية الارتجالية المبكرة التي تمارس في

أغلب منازلنا أنجبت مآسيَ تقفز من أفواهنا كلما تحدث أحدنا أو سأل أحدنا. فلا نعرف كيف نبدأ الحوار وكيف ننهيه. يجب أن يدرك أبناؤنا كيف يتحدثون وكيف يسألون. هناك أسئلة كثيرة تكرس الطائفية والقبلية والتمييز، علينا أن نطردها، ونقمعها، ونصادرها.

أنا لست حانقاً من الشاب (طيب الذكر أعلاه) الذي قبض عليّ في الطائرة بسؤاله، لكنني حانق على أمه وأبيه، لأنهما أودعا في أذنه «كخه»، و«عيب»، و«أح» مبكراً، متناسين أنها مفردات لا تشيد لساناً، لا تشيد سؤالاً، بل تشيد حزناً أطول من «برج المملكة»!

كم باباً فتحت؟

دون أن أقصد تسببت في جريمة بأمريكا. فلم أفتح الباب لسيدة كبيرة في السن كانت تسير خلفي وأنا أهم بالخروج من باب مجمع تجاري. ارتطمت السيدة بالباب وتعثرت وتبعثرت أغراضها على الأرض دون أن تصاب بأي أذى. لكن خلال محاولتي مساعدتها في جمع أشلاء أكياسها سألني رجل أمن أن أرافقه إلى مكتب الإدارة في المجمع بصوت عالٍ كالذي ينادي به اللصوص. ذهبت معه مردداً في نفسي: «اللهم لا أسألك ردَّ القضاء ولكن أسألك اللطف فيه». وفور أن دخلت المكتب دار بيننا الحوار التالي، والذي بدأه بسؤال فظ: «هل لديك مشاعر؟». أجبته باقتضاب: «بالتأكيد». فردَّ ووجهه يفيض غضباً: «لماذا إذاً لم تفتح الباب للسيدة التي وراءك؟». رددت عليه قائلاً: «لم أرها. فأنا لا أملك عينين في مؤخرة رأسي». فقال وهو يبحث عن قارورة الماء التي أمامه ليطفئ النار التي تشتعل في أعماقه إثر إجابتي التي لم ترق له: «عندما تقود سيارتك يتوجب عليك أن تراقب من هو أمامك ومن خلفك وعن شمالك ويمينك. فمن الأحرى أن تكون أكثر حرصاً عندما تقود

قدميك في المرة المقبلة». شكرته على النصيحة، فأخلى سبيلي معتذراً عن قسوته، مؤكداً أن تصرفه نابع من واجبه تجاه أي شخص يبدر منه سلوكاً يراه غير مناسب.

خرجت من مكتبه وأنا أهطل عرقاً رغم أن درجة الحرارة كانت تحت الصفر وقتئذ في ولاية يوتاه بغرب أمريكا. كان درساً مهماً تعلمته في سنتي الأولى في أمريكا عام 2000. فأصبحت منذ ذلك الحين أفتح الأبواب لمن أمامي وخلفي وعن يميني وشمالي. ومن فرط حرصي أمسكه لمن يلوح طيفه من بعيد في مشهد كوميدي تسيل على إثره الضحكات.

فتح الأبواب في المجمعات التجارية والمستشفيات والجامعات يعد سلوكاً حضارياً ويعكس ثقافة تجيدها دول العالم الأول مما جعلها تقطن الصدارة، فيما نقبع في المؤخرة. لا أقصد فقط الأبواب الفعلية التي نعبرها في أماكننا العامة بل أيضاً الأبواب الافتراضية التي تقطننا وتشغلنا. في يقظتنا وأحلامنا. باب الوظيفة وباب الترقية وباب الفرصة. هذه الأبواب التي يملك بعضنا مفاتيحها ومقابضها، بيد أنها للأسف لا تفتح إلا لمن نحب ونهوى. لمن له منزلة في نفوسنا وقلوبنا، مما أدى إلى ارتطام وسقوط

الكثير من الموهوبين، ممن لا حول لهم ولا قوة أمام هذه الأبواب، متأثرين بجراحهم ومعاناتهم. فأبوابنا موصدة ومغلقة إلا أمام قلة قليلة لهم الحظوة والشفاعة وربما ليس لديهم أدنى الإمكانات للحصول على وظيفة معيّنة أو فرصة تتطلب مواصفات ومعايير محددة.

في حفل تخرج صديقي من جامعة مانشستر ببريطانيا العام الماضي تأثرت بكلمة الخريجين التي ارتجلها طالب سوداني حصل على درجة الدكتوراه في الهندسة. سحرتني كلمته القصيرة التي قال فيها: «لن أفسد فرحتكم بكلمة طويلة مملّة. سأختزلها في جملتين. دكتور جون فرانك، شكراً لأنك فتحت باب مكتبك وعقلك لي. هذا الباب هو الذي جعلني أصعد هذه المنصة اليوم وأزرع حقول الفرح في صدر جدتي مريم».

قطعاً، لا يرتبط السوداني صلاح كامل وأستاذه جون فرانك بوشائج قرابة وروابط دم. لكن الأخير آمن بمشروع طالبه فشرع له أبواب طالما اصطدم بها في وطنه وعدد من الدول العربية. يقول صلاح وهو يدفع عربة جدته التي جاءت إلى بريطانيا خصيصاً لتتقاسم مع حفيدها الوحيد فرحته بالحصول على الشهادة الكبيرة: «الدكتور فرانك الوحيد

الذي أصغى إلي. طفت دولاً عربية كثيرة وجامعات عديدة ولم أجد أذناً صاغية».

إن مجتمعاتنا العربية تحفل بالأنانية وحب الذات. فتكاتفنا وتعاوننا وفتحنا الأبواب لبعضنا البعض سيثمر نجاحاً كبيراً. يقول المفكر الفرنسي لاروشفوكو: «الأنانية كريح الصحراء... إنها تجفف كل شيء».

ثمة حل واحد يقودنا لإفشاء الإبداع وإشاعة النجاح وهو نكران الذات وإعلاء محبة الإنسان عالياً وتطبيقه في كل معاملاتنا. وليبدأ كل واحد منا بسؤال نفسه قبل أن يخلد إلى النوم: «كم باباً فتحت اليوم». إجاباتنا ستحدد إلى أين نتجه. فماذا ننتظر من مجتمعات مغلقة لا تفتح الأبواب... لاشك أنها تركض وراء السراب؟

كيف يصبح الألم أملاً؟

حملت زوجة صديقي بعد 14 عاماً من الانتظار الممض. سعادتهما كانت غامرة. سعادة أكبر من أن توصف أو تكتب. حملت بعد عمليات ومحاولات ودعوات هائلة. لكن تحقق الحلم ونسأل الله أن يتمم عليهما. لم تكن فرحتهما وحدهما فحسب بل فرحة كل من حولهما: والديهما، والأطباء، والممرضات، والأصدقاء. كان صديقي يهاتفني قبل أن يتلقى هذا النبأ السعيد بأسبوعين والحزن يغمر صوته. فلم يعد قادراً على الانتظار أكثر. صار عندما يشاهد الأطفال يهرب منهم إلى أقرب غرفة. يغلقها جيداً، ويبكي حتى يجف دمعه. أصبح يتقشف في أداء الواجبات الاجتماعية خشية أن يرتطم بطفل يذكِّره بمعاناته. لكن إرادة الله كانت فوق كل شيء. أعادت إليه الأمل والسعادة بعد عمل دؤوب ومبادرات جمّة. فالمُحبَط تحول بين عشية وضحاها إلى شخص مقبل على الحياة مفعم بالأمل والبهجة. يقول الشاعر أبو الفتح البستي:

ما بين غمضة عين وانتباهتها

يغيِّـر الله من حـال إلـى حـال

إذاً، اليأس لا يجب أن يقطن صدرونا. فالله بوسعه أن يحيل الألم إلى أمل في لحظات متى ما قاتلنا وحاربنا ولم نقنط من رحمته. أم أحد زملائي ابتلاها الله بسرطان الثدي قبل نحو 19 عاماً. دفنها أقاربها ومحيطها مبكراً بدموعهم فور أن تناهى إلى علمهم نبأ إصابتها بالمرض الخبيث. لكنها استقبلت النبأ برباطة جأش وإيمان واحتساب. راجعت العديد من المستشفيات وأجرت الكثير من العمليات. واليوم أم زميلي ترفل في ثياب الصحة والعافية. تخيّلوا أين ستكون الآن لو جرفتها الدموع التي اجتاحتها قبل نحو عقدين؟

الانتصار لا يعانق من ينتحب، بل من يتكبد وعثاء السفر في سبيله. إن حياتنا كالماراثون الطويل، لا تخلو من آلام ومنغصات وعراقيل. لكن لا يفوز سوى من يبذل المشقة ولا يقنط ولا ينسحب حتى يصل إلى خط النهاية.

من الطبيعي أن نحزن وأن نتضايق. لكن يجب أن لا نسمح لليأس أن يتمكن منا ويكتفنا ويحرمنا الفوز الذي نستحقه حتى لو جاء متأخراً. يقول أرسطو: «من أيِسَ من الشيء استغنى عنه».

ثمة مذاق خاص للأشياء التي تأتي متأخرة. تأملوا الآباء الذين حصلوا على أطفالهم بعد طول انتظار. والمرضى

الذين تعافوا بعد ألم مضن. والمبدعين الذين نالوا النجاح بعد جهد جهيد. ستجدونهم أكثر امتناناً وتقديراً وسعادة.

والت ديزني، الاسم المعروف، مرّ بلحظات عصيبة كادت أن تعصف بموهبته. فمنذ نعومة أظفاره كان يعشق الرسم. هذا الحب جعله يغادر الثانوية مبكراً ليحترف الفن. لكن فشل مراراً في الوصول إلى هدفه. لم يعد يملك ما يقيم الأود ويسد الرمق. عمل سائقاً لسيارة إسعاف بعد أن طرد من الجيش بسبب صغر سنّه. لكنه لم يستمر سائقاً سعياً وراء تحقيق أمله. عمل في شركات إعلانية بمساعدة شقيقه روي الذي كان يعمل موظفاً في أحد البنوك. لكن سرعان ما تركها بسبب تهكم زملائه على رسوماته وأفكاره. افتتح شركة فنية مع زميله بيد أنها انهارت سريعاً. تعرض لإحباط شديد كاد يودي بموهبته، لكنه نال فرصة ذهبية عندما نشرت أعماله الكارتونية إحدى الصحف بعد مفاوضات طويلة. ذاع صيته تدريجياً وكوّن شخصية مختلفة أتاحت له الانطلاق في الإبداع. صبر ديزني جعله يصل إلى أحلامه التي كادت أن تلقى مصرعها لولا مثابرته وإصراره. ديزني الذي تدرّ شركاته اليوم أرباحاً سنوية تقدر بـ 30 مليار دولار أمريكي لم يصل إلى هذا النجاح لو اعتقد لوهلة أن مهمته مستحيلة.

يقول طاغور: «المستحيل لا يقيم إلا في أحلام العاجز». فلنقتلع المستحيل من قاموسنا ونعزز الأمل في نفوسنا ليحل محل الألم الذي يقض مضاجعنا. إنه لا فرق بين الألم والأمل سوى أن اللام تقدمت في الأولى وتأخرت في الثانية. فلندفعها بكل ما أوتينا من قوة مهما أنفقنا من معاناة لتعود إلى مكانها في الخلف وليس في الصدارة. فهل نحن فاعلون؟

لماذا نموت قبل الموت؟

دخلت الصالون وهي ترتدي أجمل ابتسامة. تميط اللثام عن أسنان ناصعة وسعادة هائلة. قبل أن تشرع في قراءة الكتاب الذي أخرجته من حقيبتها الأنيقة تقدمت نحوها مصففة شعرها بانشراح. رحبت بها بحرارة ثم ناولتها صورة قائلة: «اخترت لك سيدتي هذه التسريحة. شعرت أنها تناسبك». تصفحتها الزبونة السعيدة على عجل وقالت وهي تمدّ لها جوالها: «لا، لدي تسريحة أجمل منها. إنها في هاتفي». تأملت المصففة شاشة الجوال الصغيرة بتأنٍّ ثم ابتسمت قائلة: «لكِ ما تريدين».

سرقت انتباهي تلك الزبونة البريطانية. لفتت نظري ليس بسبب ابتسامتها أو تسريحتها، بل بسبب عمرها. إنها تتجاوز الثمانين عاماً، لكنها تتحلى بروح وحيوية فتاة يافعة. مازالت تركض خلف الموضة والتسريحات الحديثة بحماسة. مازالت تقبل على الحياة كأنها في العشرين.

جارها الأسكتلندي، الدكتور جيمس ميرليس (73 عاماً)، الحائز على جائزة نوبل في الاقتصاد عام 1996، يتشبث بالحياة هو الآخر لكن بنظارته السميكة وأحلامه

العديدة. كان يتحدث بحبور في لقائه التلفزيوني كأنه فاز بالأمس وليس قبل 14 عاماً. كان سعيداً جداً وهو يمطر المذيع بكلمات صينية تعلمها للتو. لدى ميرليس شهية مفتوحة لالتهام المزيد من الكتب واللغات رغم آلام عينيه الطفيفة. جدوله اليومي مزدحم بالفعاليات والأنشطة والفواكه. يبدأ يومه في الساعة السادسة صباحاً بالتهام صحيفة وتفاحة. ثم ينخرط في قراءة ما تيسر من كتاب قبل أن يذهب إلى الجامعة. عصراً يذهب إلى المعهد لتعلم اللغة الصينية ومساء يزاول الرياضة وتصفح بريده الإلكتروني. قبل أن يخلد إلى النوم يتناول موزة وكتاباً. يقول: «كلما كان يومي متخماً ازدادت بشرتي نصاعة وابتسامتي اتساعاً». يحلم ميرليس أن يتعلم الصينية والألمانية والكثير من المهارات التقنية المتسارعة مستحضراً كلمات الفيلسوف الإنجليزي، فرنسيس بايكون: «الشيخوخة في الروح وليست في الجسد».

الإنجليز ليسوا وحدهم الذين يتمتعون بالحياة حتى آخرة قطرة، فالسنغافوريون يفعلون ذلك بمهارة. يعترف رجل الأعمال السنغافوري الناجح تشو باو (83 عاماً) أنه لا ينام سوى أربع ساعات يومياً. يقول: «لا أود أن أهدر يومي في الفراش». يقضي تشو جل يومه في المكتب أو مع أبنائه.

يلعب معهم كرة السلة أو يطهو لهم. يرى السنغافوري أن الموت يهرب منه كلما وجده سعيداً. يقول في مذكراته التي صدرت العام الماضي: «أنا لا أخاف من الموت. سيحملني يوماً ما... عاجلاً أم آجلاً، لكن لماذا أناديه قبل أوانه؟».

المسنّون في العالم يركضون ويستمتعون، يتبرجون ويتعلمون، لكن أقرانهم في دولنا العربية مريضون وحزينون ومكتئبون، يموتون قبل الموت.

لمَ لا نجد سبعينياً يدرس في الجامعة أو يتعلم لغة أخرى؟ لمَ لا نجد كبيرة في السن تصبغ شعرها وتغير تسريحتها بين الحين والآخر؟

لماذا تنطفئ حماسة معظم آبائنا في الستين؟ يقلع كبارنا عن السعادة والفرح مبكراً. يحرمون أنفسهم والآخرين من إمكاناتهم إثر تقوقعهم وانزوائهم.

في الغرب عندما يتقدم الإنسان في السن تظهر عليه ملامح الرفاه والارتياح، فقد تحرر من الكثير من الالتزامات وتفرغ لهواياته وسعادته. في المقابل، يذوي إنساننا عندما يكبر. تصيبه الأمراض الواحد تلو الآخر إثر جلوسه وإحباطه. ينتظر الموت أن يلتقطه في أي لحظة.

الإقبال على الحياة يطيل العمر ويسعد الإنسان وينعكس على أدائه وعمله. ألم يقل سيد الخلق عليه الصلاة والسلام: «خير الناس من طال عمره وحسن عمله».

فلمَ لا نطيل أعمار آبائنا بإسعادهم وإخراجهم من عزلتهم وقنوطهم، بتدريبهم على تقنيات حديثة وتحفيزهم على خوض غمار تجارب جديدة؟ إن من لا يجيد أصول اللعبة لن يخوضها. فلنعلمهم ونعيد الحياة والحماسة إلى أرواحهم وأطرافهم.

علينا أن نشجع أمهاتنا وآباءنا وأقاربنا على ممارسة ما يحبون... أن يصبغوا شعرهم ويلوّنوا حياتهم دون أن نطفئهم بعبارات قاسية سراً وعلانية على شاكلة «متصابية» أو «مراهق في الخمسين» تجعلهم يذبلون ويختفون.

تأثرت جداً عندما سألني قبل عدة أشهر رجل في العقد الخامس أن أساعده في كتابة رسالة نصية من جواله.

من لا يعرف كتابة رسالة هاتفية قطعاً لا يستطيع أن يرسل إيميلاً أو يتصفح موقعاً إلكترونياً. الأمية في وقتنا الحاضر لم تعد تقتصر على القراءة بل على التعاطي مع وسائل التقنية الحديثة.

فالإنجاز والإبداع لا يرتبطان بعمر ومرحلة معينة.

تصفحوا أهم اختراعات وابتكارات ومؤلفات العالم وستجدون أن خلفها مسنّين يتدفقون حياة وموهبة. فلمَ لا نصفق لمسنّينا وندعمهم ونؤازرهم كبقية العالم؟

إذا لم نغيِّر عاداتنا وسلوكياتنا فلن نكون أوفر حظاً من آبائنا، فهم نتيجة لثقافتنا وأسلوبنا العقيم. سنستمر متأخرين، ومتخلفين عن الركب، سنهرم مبكراً، وسنُهزَم مبكراً، وسنموت قبل الموت.

من أفضل: نحن أم الهنود؟

غضب أحد زملائي عندما سأله نادل بريطاني في مطعم بلندن: «هل أنت هندي؟». غادر النادل طاولتنا، لكن لم يغادر سؤاله. ظل زميلنا يأكل نفسه قائلاً: «إنه آخر شيء توقعته في حياتي، أن يجيء اليوم الذي ينعتني أحدهم بالهندي».

انطفأ غضب زميلي بعد حين. لكن اندلع الغضب في أنحائي كون العنصرية مازالت تسكن سوادنا الأعظم حتى ولو بلغنا من العلم عتياً. سيكون غضب ابن جلدتي مبرَّراً نوعا ما لو أن مصدر حنقه يعود لاعتزازه بجنسيته دون غيرها. لكن للأسف ليس هذا هو الواقع. فقد وجهتُ وزملائي إليه سؤالاً محدداً: «هل لو أعتقد النادل أنك أمريكي أو كندي أو إيطالي ستغضب؟». فأجاب بـ«لا». عرفتم سبب ضيقي الآن. إننا نفرق بين شعوب العالم بسبب جنسياتهم وهيئاتهم. التمييز لا يظهر في أحاديثنا فحسب، بل حتى في أنظمتنا التي هي أيضاً بحاجة إلى مراجعة حقيقية. فماذا يعني إذاً أن يحصل البروفيسور الهندي على راتب متدنٍّ، بينما هو نفسه عندما يذهب إلى أمريكا، ويعود متأبطاً جوازها إلينا

من جديد يحصل على راتب يقدر أحياناً بأربعة أضعاف الراتب الذي كان يحصل عليه سابقاً. بعيداً عن الاتفاقيات المبرمة بين الدول، أين الاتفاقيات التي تصون الكرامة وتجسد العدالة وتشيع الإنسانية؟

للهنود نجاحات عظيمة تستحق القراءة والإدراك في جميع أنحاء العالم. فهم يحققون نجاحات متتالية بعيداً عن الضوء والصخب. يذهب الكثير منهم وراء البحار. إلى أمريكا وكندا وبريطانيا وأوروبا وغيرها دون منح دراسية أو قروض. يذهبون مهاجرين معدمين في أحيان كثيرة. بيد أنهم يسجلون إنجازات تحضّ على الإشادة والتقدير.

ففي المملكة المتحدة وحدها، التي يقطنها نحو مليون ونصف بريطاني من أصل هندي، أحرزوا نجاحات لم تحرز ربعها دولنا العربية مجتمعة.

ففي لندن، هينال رايتشورا، المولودة عام 1985، هي أصغر طبيبة في المملكة المتحدة، وقد تخرجت من جامعة سانت جورج بلندن في يونيو 2008، عندما كان عمرها 22 عاما وقتئذ. وتعمل حالياً في مستشفى «يونيفريستي كوليج» في لندن الذي تأسس عام 1834، ويتسع لـ 595 سريراً. وحصلت في يناير (كانون الثاني) الماضي على جائزة

«جلوري إنديان». كما حصلت العام الفائت على عدة جوائز في التميّز الأكاديمي من عدة جهات بريطانية. وقد وضعت صحيفة الدايلي البريطانية صورتها، وهي تضع السماعات الطبية حول عنقها وزمام أنفها يلمع متحالفاً مع ابتسامتها، على صدر صفحتها الأخيرة في 11 يوليو (تموز) 2008، قائلة: «أصغر طبيبة بريطانية تبدأ عملها اليوم وهي في الثانية والعشرين». ويتكهن الكثير من الاختصاصيين والعلماء بحصول رايتشورا على جوائز علمية وبحثية مرموقة إثر إمكاناتها وعملها الدؤوب في المختبرات والأبحاث، مما يشي بمستقبل مهني وعلمي واعد.

وللذكاء البريطاني الهندي جذور في لندن. فمن ينسى البريطاني من أصل هندي سارفادامان تشولا، أحد أبرز علماء وأساتذة الرياضيات في بريطانيا والعالم، والمتخصص في نظرية الأعداد. وقد ساهم تشولا حتى وفاته عام 1995، وهو في عمر 88 عاماً، في العديد من الأبحاث الرياضية التي مازالت محل تقدير المتخصصين والطلاب. فمازالت مؤلفاته تدرس في كامبريدج وأكسفورد وأهم المؤسسات التعليمية في العالم.

ومازال الفرح قائماً في المملكة المتحدة بفوز

العالم الأمريكي الهندي، المقيم في بريطانيا، فينكاترامان راماكريشنان، بجائزة نوبل للكيمياء مع عالمين آخرين للعام الحالي 2009 عن دراستهم لتركيب وعمل الريبوسومات التي توصف بأنها مصنع البروتين في الخلية. وقد تلقت بريطانيا نبأ فوز فينكاترامان راماكريشنان، الذي يعمل في معامل البيولوجيا الجزيئية في المجلس البريطاني للأبحاث في كامبريدج ببريطانيا، بالكثير من السعادة والحبور. يقول الكاتب البريطاني، روبين لاين: «إن العلماء من أصل هندي باتوا يحققون نجاحات مبهرة. لاشك أنهم يتمتعون بذكاء حادّ. نجاحاتهم تتسارع. لا بد من دراسة تجاربهم واستنساخها، وقبل ذلك دعمهم وتشجيعهم. فهم مكسب لبلدنا والعالم».

العالم المتحضر ينظر إلى الهنود نظرة إيجابية. نظرة تخلو من العنصرية. نظرة تتأمل في إنجازاتهم. نظرة تثمن عملهم وعطاءهم. علينا أن نؤصل حب الجميع في نفوسنا، وننبذ العنصرية في سلوكياتنا وأنظمتنا، وأن نبذل كل ما في وسعنا للنمو والازدهار والانفتاح على كافة الشعوب والحضارات. وأن نجعل مجتمعاتنا حاضنة للمبدعين من كافة الألوان والأعراق. ألا يجب أن نتساءل، لماذا لا يحرز

هؤلاء هذه الإنجازات في وطننا كما يفعلون في بوسطن ولندن وسنغافورة؟ ثمة مناخ غير صحي يحرمنا من استثمارهم والاستفادة منهم. من الواجب أن نغيّر هذا المناخ. أن نغرس محبة الآخرين في نفوس أطفالنا حتى يترعرعوا بجوارهم في فضاء خالٍ من هواء ملوث بالتمييز، ولا يكرروا أخطاء آبائهم وأجدادهم. كما أنه يجب أن نؤمن بحقيقة قاطعة وهي أنه لا أحد أفضل من أحد. ولا فضل لأحد على أحد. ألم يقل رسولنا الكريم، صلى الله عليه وسلم: «لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى».

نيشيكاوا والكلب!

قبل أربعة أعوام جمعني وشابين سعوديين وأمريكياً مصعد في جامعة ويبر الحكومية بمدينة أوجدن، في ولاية يوتاه الأمريكية. كاد المصعد ينهمر دموعاً تعاطفاً مع الأمريكي الذي انهال عليه أحد السعوديين المراهقين تهكماً بلغة عربية. كان السعودي يهزأ من لحية الأشقر وبنطلونه. يسخر من شعره وأنفه مستغلاً عدم فهمه لما يقول. وخلال محاولتنا إيقاف قصف مواطننا فوجئنا بالأمريكي يلتفت نحونا مبتسماً، ووجهه يفيض سلاماً، ويقول لنا بلغة عربية هادئة «ليس كل أشقر لا يجيد العربية. أنا من أصل سوري. أنا مصدوم مما قال رفيقكما، لكن ماذا عساي أن أقول؟».

وفي أمريكا أيضاً، أذكر أنني ونحو 15 طالباً أجنبياً تكدسنا في شقة زميل ياباني، ودار بيننا حوار طويل حول العادات والتقاليد المختلفة في كل بلد، وسألنا مضيفنا «نيشيكاوا» قبل أن ننصرف من شقته أن نلقي قصيدة بلغتنا الأم. وقد تبرّع أحد الزملاء السعوديين بإلقاء قصيدة نيابة عنا نحن معشر الطلاب العرب في تلك الشقة، حيث كان يبلغ عددنا وقتئذ 5 من السعودية، والإمارات، ومصر.

وقد ارتجل صاحبنا بتصرف البيت الأول لقصيدة ابن الرومي التي هجا فيه حاجب الوزير:

وَجهُك يا نيشيكاوا فيهِ طولُ   وفي وُجوهِ الكلابِ طُول

وحينما سأل نيشيكاوا صاحبنا عن معنى القصيدة أجابه بأنها تعني أن وجهك فيه ضوء لا يضاهيه سوى ضوء الشمس!

وقبل أن نفرغ من تقريع صاحبنا على اختياره وسلوكه اتصل به نيشيكاوا، الذي أدرك معنى البيت الحقيقي عن طريق أحد الزملاء، معبراً عن غضبه الهائل الذي طالنا أجمعين، حيث عاهد نفسه ألا يصادق عربياً طوال حياته بسبب قصيدة ابن الرومي التي رماها صاحبنا في وجهه.

الموقفان السابقان يعكسان وجود خلل في سلوكياتنا. هذا السلوك الذي لم ندرسه ولم نتعلمه. هذا السلوك الذي جعلنا نرتكب حماقات لا تغتفر.

في دول العالم شرقها وغربها ووسطها يتعلمون السلوكيات أو «قود مانرز ورايت كوندكت» ابتداء من الصف الأول حتى التاسع، وفي مرحلة الثانوية يدرسون قيم التعلم «فاليوز إديوكيشن»، وفي الجامعة الأخلاق «الإثيكس» بينما نتجاهلها نحن. سألني صديق سنغافوري سمع بقصة ابن

جلدتنا مع نيشيكاوا: «ألم تدرسوا «قود مانرز» في مدارسكم؟ ما قام به زميلكم حتى ولو كان على سبيل الدعابة سلوك غير مقبول خاصة أنه كذب في معنى القصيدة».

الإجابة المرة أننا لم ندرس هذه الأبجديات ولا نألفها. لا أنسى الإحراجات التي تعرضت لها في بداية انتقالي للدراسة في أمريكا. فكان النادل والسائق والمعلم والسباك يتعاملون معي كطفل، فكلما أسدوا لي خدمة أو طلبت منهم شيئاً ونسيت أن ابتسم وأن أشكرهم كما ينبغي رددوا على مسامعي العبارة الشهيرة: ماذا عن الكلمات السحرية «وات أباوت ذا ماجيك ووردز؟» ويقصدون بها: شكراً، أنا ممتن، من فضلك، أرجوك وغيرها.

هذه الكلمات لم تدخل قاموسنا إلا مؤخراً، لم تدخل إلا بعد أن بلغنا من العمر عتياً، وأرسينا قواعد هشة لعلاقاتنا مع الآخرين.

يجزم لي الطبيب محمد السليماني الذي يعمل في مستشفى خاص أنه يستطيع أن يكتشف الطفل السعودي ولو من بين مئة طفل يلعبون في فناء كبير بسبب سلوكياتهم وليس بسبب هيئتهم «ربما أطفالنا يشبهون الأطفال الهنود والسوريين والمصريين لكن يختلفون عنهم في سلوكياتهم.

يتعاملون مع الممرضات كالخدم. يضربونهن ويرفعون أصواتهم عليهن».

سألت مهندس بترول هولندياً تعرفت عليه خلال زيارة قام بها للسعودية استغرقت شهرين عن أبرز ما استوقفه خلال فترة وجوده بيننا فقال «تعاملكم مع السائقين. شاهدت فتى يافعاً ربما يبلغ عمره عشر سنوات يركل السائق بإلحاح. لفتني كهل يصرخ في وجه سائقه. أعتقد أن لديكم مشكلة».

سيتفاقم الشعور السلبي تجاهنا إذا استمررنا في إهمال تقويم سلوكياتنا وعدم تدريس أدبياتها باكراً، سينصرف نيشيكاوا ورفاقه عنا وسنبقى وحيدين، معزولين نردد قصائدنا الخوالي ونتهكم على بعضنا البعض!

هياط

رمى مفتاح الغرفة في وجه ممثل لجنة الإسكان في المؤتمر وهو يزبد ويشتم. خرج من باب الفندق وهو يكاد ينفجر غضباً قائلاً: «أنا أستحق ما حدث لي. من المفترض ألا ألبي دعوتكم قبل أن أعرف أنكم حجزتم لي جناحاً وليس غرفة».

أتذكر كلمات الأكاديمي السعودي تماماً كما لو أنها خرجت من لسانه طازجة قبل لحظات. مر على هذه الحادثة عدة سنوات، لكنني أسترجعها دائماً كلما تصفحت اهتمامنا بالشكليات على حساب الأساسيات.

خلال عملي في أكثر من منتدى ومؤتمر اكتشفت اهتماماً فادحاً بالقشور من إحدى أكثر شرائح المجتمع ثقافة ووعياً. لا أنسى عندما جاء أحد مديري الجامعات السعودية إلى الفندق الذي يحتضن المناسبة قبل بدايتها بثلاث ساعات. اعتقدنا أنه في موعد عمل، لكنه لم يكن كذلك. جاء لكي يظفر بمقعد يبتغيه في القاعة الرئيسة وفي صالة الطعام. كان يتفاوض مع المسؤولين عن القاعات على الكرسيين بحرص شديد. تمنيت لو أنه ادخر هذا الجهد في سبيل تنمية الجامعة التي يديرها.

ومرة أخرى اتصل عليّ سكرتير وكيل إحدى الجامعات السعودية يسألني بإلحاح عن نوع السيارة التي ستستقبل رئيسه في مطار جدة؟

في المقابل، كنت شاهداً على حوار جمع مدير جامعة كندياً حضر مؤتمراً في المملكة مع موظف الاستقبال. كان البروفيسور الكندي يتوسل الموظف أن يمنحه غرفة وليس جناحاً. الموظف اعتذر بلباقة عن تلبية طلبه، كون الغرف كلها محجوزة وأن اللجنة المنظمة هي التي حجزت له هذا الجناح مبكراً. تابعت كيف سافر الكندي من شخص إلى آخر في لجنة الضيافة شاكراً حفاوتهم وراجياً أن ينقلوه إلى غرفة قائلاً: «ماذا أفعل بجناح وأنا وحدي؟».

إذا كان بعض الأكاديميين الكبار لدينا تشغلهم الكراسي والأجنحة وأنواع السيارات فهل سننتظر فتوحات علمية وبحثية عظيمة؟ هل سننتظر مجتمعاً متحفزاً يكرس الوعي ويؤسس لبناء عقول كالعالم المتقدم وليس صروح أسمنتية قد تهوي في أي لحظة؟

إنها ليست جريرة الأكاديميين أن يتحول مجتمعنا إلى مادي ومظهري، لكن لا ننتظر منهم الانصباب في قالب الجماعة التي عززت هذه السطحية العارمة. ما فائدة

الدراسة والسنوات التي أفنوها في القراءة والبحث إذا كانت هذه هي المحصلة؟ فدورهم يجب أن يكون قيادياً نحو التغيير الإيجابي الذي ينعكس على العباد والبلاد.

من يراقبْ مجتمعنا حالياً يرَ انهياراً في قيَم البساطة والتواضع والزهد التي كان يتسم بها ويتميز بها عن سائر العالمين، ويرى ازدهاراً في الاستعراض والنفاق و«الفشخرة»، فأعيادنا التي كنا ننتظرها بشغف كل عام أضحت مسرحاً للاستنزاف والاستهلاك والتبذير. أضحت الكثير من العوائل تنفق آلاف الريالات في ملابس لا يتم ارتداؤها إلا ساعات قليلة. إنني أتساءل: كيف سيفرح الآباء بالعيد بعد أن أهدروا مدخراتهم في ما لا ينفع؟ العيد يجب أن يأتي ليرسم بسمة على الشفاه ويغسل أرواحنا لا أن يقطب جبيننا ويغسلنا بالهموم ويشغلنا بديون بطاقاتنا الائتمانية. إننا ندمر كل المعاني الجميلة ليس في العيد فحسب بل في مناسباتنا السعيدة بأسرها إثر المبالغة في الإنفاق واقتناء الماركات على حساب ظروفنا وإمكاناتنا وقيمنا.

السعادة الحقيقية ليست بارتداء أغلى الثياب أو ركوب أحدث السيارات أو السفر في الدرجة الأولى أو السكن في الأجنحة الفاخرة. يقول آدم خو (36 عاماً)، أصغر

مليونير في سنغافورة، إن السعادة المادية لا تدوم أبداً: «هي كالمخدر المؤقت أو الحل السريع. بعد حين تشعر بأنك تعيش مرة أخرى وفي حاجة إلى مخدر آخر، فتسعى لشراء السلعة التالية التي تعتقد أنها ستجعلك سعيداً». ويؤمن آدم أن سعادته تتحقق عندما يقرأ كتاباً جديداً ممتعاً أو عندما يشاهد أبناءه يتعلمون وينمون بسرعة. وينهى المفكر الأيرلندي، جورج برنارد شو، هو الآخر عن الملابس باهظة الثمن قائلاً: «اللباس المُكلِف يدلّ على ضعف عقلي».

ثمة مسؤولية يجب أن نعززها في الناشئة والأجيال الجديدة لندحر هذا الغزو المادي الذي أشاع الفقر وكرس الطبقية وحوَّلَنا إلى مجتمع استهلاكي بامتياز. مجتمع يعتني بالمظهر لا بالجوهر. مسؤوليتنا تتطلب أن نكون قدوة حسنة وأن نجعل هذا الجيل يتذوق ما يتحدث عنه آدم... أن يطلعوا على كتب جديدة ساحرة ومدهشة تجذبهم وتخاطب ذكاءهم واهتماماتهم... وأن يتذوقوا برامج تعليمية شهية تشغلهم وتلهمهم. وإذا لم نوفر لأبنائنا وإخواننا، ذكوراً وإناثاً، هذه الفرص والبرامج فلا يجب أن نحزن إذا استفحل «الهياط» وغمر كل ما تبقى!

السيرة الذاتية للمؤلف



عبدالله بن أحمد بن عبدالله المغلوث

- كاتب أسبوعي في جريدة الوطن السعودية.
- يدرس الدكتوراه في الإعلام الإلكتروني في جامعة سالفورد ببريطانيا منذ سبتمبر (تشرين الأول) 2009م.
- حاصل على ماجستير في تقنية المعلومات والإدارة من جامعة كولورادو، ولاية كولورادو، الولايات المتحدة الأمريكية.
- حاصل على بكالوريوس في التسويق والإعلام من جامعة ويبر ستيت، ولاية يوتاه، الولايات المتحدة الأمريكية.
- عمل في عدة صحف ومجلات عربية وسعودية مثل: الرياض، واليوم، والحياة، وإيلاف، والقافلة، وفوربز.
- رئيس العلاقات الإعلامية في أرامكو السعودية عام 2006م.
- رئيس اللجنة الإعلامية لقمة أوبك الثالثة في الرياض، نوفمبر 2007م.

صدر له:

- **أرامكويون... من نهر الهان إلى سهول لومبارديا**
عن دار العبيكان للنشر.
- **الصندوق الأسود... حكايات مثقفين سعوديين**
عن دار مدارك للإبداع والنشر والترجمة والتعريب ببيروت.
- **مضاد حيوي لليأس...قصص نجاح سعودية**
عن دار العبيكان للنشر.

البريد الإلكتروني للمؤلف: almaghlooth@gmail.com

المحتويات

من إصدارات مدارك Madarek




















السيد علي الأمين
الأحزاب الدينية


السيد علي الأمين
ولاية الدولة
ودولة الفقيه


المرأة
والولاية العامة
بين الفقه الإسلامي والقوانين العربية


حكاية اسمها
غازي القصيبي
أعدها
كمال عبد القادر


تشيع العوام
وتشيع الخواص
السيد احمد القبانجي


صورة أوروبا
في
الأدب العربي الحديث
من طه حسين إلى الطيب صالح


كنا في إسرائيل
رحلات مصرية
منذ 1956 وحتى 2008


أمريكا
في مرآة عربية
صورة أمريكا في أدب الرحلات العربي
1668 - 1995
الجزء الأول


أمريكا
في مرآة عربية
صورة أمريكا في أدب الرحلات العربي
ما بعد 11 سبتمبر 2001
الجزء الثاني


تركي الدخيل
الدنيا... امرأة!


سلمان العودة
من السجن إلى التنوير
تركي الدخيل


تركي الدخيل
إنما نحن... جوقة العميان

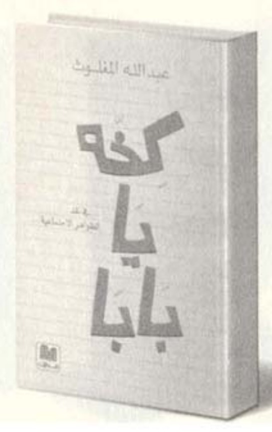

الدكتور أحمد اللويمي
المجتمع
الأحسائي المعاصر
قراءة في طباعه وأفكاره


نازح من جازان
مفاجات التمرد الحوثي
على الحدود السعودية
هادي فقيهي


تغطية العالم!
بدعة الإلزام بتغطية الوجه
أحمد السيد عطيف


خَارِجُ الطَّائِفَة
د. علي أحمد الديري


بيكاسو
وستاربكس
ياسر حارب
STARBUCKS
COFFEE


عبدالله المغلوث
كخه
يا
بابا


بَعد إذنِ الفَقيه
الحرام والحلال في أمر النساء
والطفولة والكتابة والطعام


تَلخيص البَيَانِ
في ذِكرِ
فِرقِ أهْلِ الأديانِ


رشيد الخيّون
عمائم سُود
بـ
القصر السّعودي
انطباعات شخصية عن نجد والحجاز


رشيد الخيّون
رسالة
في العَلمانية والخلافة


رشيد الخيّون
ضد الطّائفيّة
العراق... جدل ما بعد نيسان 2003


رشيد الخيّون
لا إسلام بِلا مَذاهِب
و
طُرُوس أخر من التراث


الحب والفراق
إنه محمد عبده يماني


رشيد الخيّون
مُعْتَزِلَة
البَصرَة وبَغْداد


رشيد الخيّون
جَدَلُ التّنزيلِ
مع كتاب
خلق القرآن للجاحظ


الضحك في عز النكد
علي سالم
إذا كنت مسافراً خذني معك


التطرف وثقافة السلام
علي سالم


أعمدة الضحك السبعة
علي سالم


دلال...


اعترافات زوج
علي سالم


علي سالم
بكالوريوس في حكم الشعوب

قالوا عن الكتاب:

• **تركي الدخيل**، مقدم برنامج إضاءات على قناة العربية: هذا الكتاب أعطاني الكثير من طاقة التفاؤل التي نحتاج إليها.

• **عمر المضواحي**، مساعد رئيس تحرير الوطن: لو كان لي من الأمر شيئاً، لأوصيت وزارة التربية والتعليم بتوزيعه على الطلاب والطالبات.

• **أماني العجلان**، اختصاصية اجتماعية في برنامج الأمان الأسري: كأني أحمل بين يدي دليل أخطائنا اليومية سطرها الكاتب برشاقة وسلاسة.

• **مريم السماعيل**، مديرة مدرسة: قرأته في ساعتين، واشتريت 4 نسخ منه لأهديها أقاربي.

• **نورا غبرة**، معيدة في قسم التصميم الداخلي بجامعة الملك عبد العزيز: الكتاب قريب من النفس، ويسير القراءة، وعميق الفكر.


ISBN 978-9953-566-17-7

